الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر بسكرة



كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

تشظي الهوية وأزمة الانتماء في الخطاب الروائي المعاصر

رواية "ساق البامبو" لسعود السنعوسي

-أنموذجا-

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية

تخصص:أدب حديث ومعاصر

إعداد الطالبة:

تجاني حسناء

إشراف الأستاذ:

علي بخـــــــوش

السنة الجامعية: 1436هـ/1437هـ

2015م/ 2016م



قال تعالى

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾

الروم آية22

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾

المائدة آية48

صدق الله العظيم

مقدمة

الصدمة الثقافية التي مر بها الفكر العربي إثر التلاقي الحضاري الذي عقب الحملة البونابارتية جعلته يخوض غمار الحضارة في سفه ودون قيود تحت شعار نفض غبار التخلف، ما خلق صدمة أشد بعيد التغيير المتسارع الذي أحدث خللا في القيم السائدة ومنه أزمة الهوية، التي تعد السليلة البكر للأزمة الحضارية، فقد طالتها يد التغيير بشكل مبالغ فيه. والهوية مفهوم إشكالي يستوعب قيم وانتماءات عدة، ولعل تعدد الانتماء ومنه الولاء لهويات عدة (وطنية-قبلية-طائفية-دينية) يحقق خللا أكبر على مستوى الإدراك الفردي، والذي يأجج الأزمة النفسية، ويخلف بصماته على الجانب الاجتماعي، فتجعله حائرا أمام أولويات بذل الانتماء.

إن الهوية ذات مفهوم فضفاض؛ ذلك أن العديد من الدراسات قد تناولتها بالدراسة، فتشعب مفهومها واختلف من درس لآخرى، إضافة لكونها معطى مركب دينامي، ما يجعلها عصية عن الحصر.

وقد استطاع الخطاب الروائي خوض غمار الواقع، وإضاءة جوانبه المعتمة، رافعا أزماته نحو السطح والهوية من أهم المفاهيم التي ساقتها الرواية المعاصرة.

وقد وقع الاختيار على أهم ما جادت به قريحة الكاتب الروائي الشاب سعود السنعوسي، لتكون عمودا للدراسة، ألا وهي رواية"ساق البامبو" التي يمكن القول بأنها استطاعت حيازة جوانب عدة من معطيات الهوية وأزماتها، لتكون فضاء خصبا مكن من تشييد معمارية هذا البحث.

أما الإشكالية التي تطرح نفسها بإلحاح، يمكن صياغتها كالآتي:

- كيف تجسدت رؤية سعود السنعوسي لأزمة الهوية التي راحت تطيح بالمجتمع، من خلال ما ساقه في روايته ساق البامبو؟.

هذه الإشكالية التي تناسلت عنها مشكلات صغرى منها:

ما أهم جوانب الهوية التي عكستها الرواية؟ ثم إلى أي مدى تطابق تصويره للأزمة والواقع؟.

وللإجابة عن هذه الاشكالات المطروحة لزم انتخاب خطة تكون مهيكلة ومؤطرة لمسارات البحث، والتي تمت ضبطها على النحو الآتي:

تصدر الدراسة مدخل تكفل بتوضيح كنه الكلمات المفتاحية للبحث بطريقة موجزة، كذا بعض المفاهيم التي تدعم مسارات البحث في خطواته القادمة، فقد تم التطرق لمستويات الهوية من جانبها الفردي والقومي، وكذا مصادرها كما تحدث عنها هنتنغتون، ليختم المدخل بحديث حول بوادر أزمة الهوية في الفكر العربي.

ثم تم تخصيص كلا الفصلين الأول والثاني للجوانب الإجرائية؛ إذ عنون الأول بـ"إحداثيات خطاب الأزمة" بحيث انطلقت الدراسة في هذا المحيط من المنطلقات التي كفلت للخطاب وجوده المكتمل فقد كان العالم الخارجي بمعتركاته فضاء خصب يستلهم منه الروائي عالمه المتخيل، تناول هذا الفصل "دور العولمة في بذر الأزمة"؛ وتم التطرق لظاهرة العمالة على وجه الخصوص التي كان لها حصة الأسد في تشكيل أزمة الهوية التي تعاني منها الشخصية المركز، ثم تلاه المبحث الثاني المعنون بـ"المواطنة وتعصبية الواقع"، الذي أعرب عن مسارين هما: "تعددية الانتماء وإرباكات الولاء" تناول أزمة أبناء الزواج المختلط، ثم العنصر الثاني عنون "بشرعية البدون والبدون شرعية" والذي تناول قضية غير المجنسين الذين يعرفون بـ"البدون"، ثم المبحث الثالث تمت عنونته "بهوية الذات والغيرية" الذي يعد الجسر الرابط بين كلا الفصلين الأول والثاني، تم التطرق فيه إلى التناظر بين الأنا الساردة ومحيطها(آخرها)، أما الفصل الثاني فعنون بـ"حيثيات الأزمة" ومنه تم الابتعاد عن المحيط للغوص في أغوار الذات وتبيان الجوانب المظلمة للفرد داخل الخطاب، ومنه فقد انشطر هذا الفصل هو الآخر إلى ثلاث مباحث، أما المبحث الأول عنون بـ"الهوية بين التشكل والتشتت"، وتم التطرق فيه للعقبات التي اعترضت الذات خلال تشكلها، محدثة بذلك أزمة ذاتية للهوية الفردية ومن ذلك يحتذيه المبحث الموالي المعنون بـ"الذات ومأزق الاغتراب" الذي تشظى عبر مستويات عدة، تناول كل عنصر نوع من أنواعه وشخصية من شخصيات الرواية المعنية بالدراسة ثم المبحث الثالث الذي عبر عن "صراع الهويات"، الذي أعرب بدوره عن عنصرين هما: "صراع

المركز والهامش" جاء فيه حديث عن مدارات الشخصيات المسيطرة والأخرى الخاضعة لها، ثم الصراع النفسي للشخصية الرئيسية، الذي تفرع عنه بعض الأزمات الجوانية لشخصية هوزيه كصراع الولاء العرقي والديني. ثم ختم البحث بخاتمة حوت أهم النتائج التي تمت حصحصتها.

أما المنهج الممفصل لهذه الدراسة، فيمكن القول بأن الموضوع تمت معالجته وفق مقاربة سيكوسيسيولوجية؛ إذ قامت بمتابعة الأزمة من جانبها الاجتماعي في بعض مساراتها، ثم عمدت إلى الغوص في عمق الذات المهشمة في صراعها مع الواقع، كما عكسته المدونة المنتخبة، وتجاوبت مع بعض الجوانب السياسية التي ساقت أزمة "البدون".

وقد واجهت البحث مجموعة من الصعوبات الروتينية التي قد تواجه أي بحث؛ من قلة الوقت مع تركيز وامتداد المواضيع المعالجة في المدونة والتي احتاجت لأناة وتركيز وتمحيص دقيق. ثم قلة الدراسات في المجال الأدبي التي تتناول الرواية بنفس المنحى المنتخب؛ ذلك أن الكثير من الدارسين يعاملون الفضاء الروائي والمجتمع داخل الرواية ومنه الشخصية الروائية على أنها كيانات ورقية لا تتعدى كونها كذلك، وإن تعدت هذه الرؤية، يوجهون النتائج نحو المحيط؛ أي إلى خارج النص، إلى الكاتب، وهذا ما تصبوا إليه الدراسات الكلاسيكية. أما هذه الدراسة فهي على الرغم من كلاسيكيتها إلا أنها حاولت الإسهام بطريقة ما بإعادة بعث المناهج التقليدية بطريقة محدثة؛ إذ تعزل النص عن محيطه وتدرسه من جوانب سيكوسيسيولوجية على غرار ما انكفأ عليه الدرس الكلاسيكي.

أما المراجع والمصادر التي اتكأ عليها هذا البحث، فقد كان أهمها:

- نظريات الشخصية لجابر عبد الحميد جابر.
- هويات قاتلة لأمين معلوف.
- إشكالية الأنا والآخر لماجدة حمود.

- أزمة الهويات لكلود دوبار.

ولعل ما دفع الدارس لخوص غمار هذا البحث رغبته في توجيه عدسات المجهر النقدي نحو فضاءات جديدة بدلا من اجترار القوالب الجاهزة التي جمدت الدراسة الأدبية؛ ذلك ولعله لم يكن السباق لهذا الميدان، غير أنه حاول بهذا أن تكتسي دراسته حلة مغايرة عما التزمت به بقية الدراسات في نفس المجال. لكن على العموم فإن هناك بعض الدراسات التي تجاوبت مع التيمة نفسها نذكر منها:

- الدراسة المعنونة "بأزمة الهوية في رواية الحفيدة الأمريكية لإنعام كجه جي" من إنجاز الطالبة عبير سوداني.
- "صراعات إثبات الهوية في الخطاب الروائي السعودي المعاصر:صراعات المرأة الوافدة في(البحريات) نموذجا" للدكتور أبو المعاطي خيري الرمادي.
- "الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي" لسعيدة بن بوزة.

وأخيرا وليس آخرا لا يسع الدارس إلا أن يقدم شكره وامتنانه إلى الدكتور المحترم"علي بخوش" الذي تكرم بإشرافه وتوجيه وتصحيح عثرات هذا البحث، وإلى كل من ساعد من قريب أو بعيد.

الباحثة

بسكرة في:2016/04/27

مدخل

1. ضبط المصطلحات المفاتيح:

أ. التشظـــــي:

جاء في لسان العرب«الشظية: الفلقة من العصا ونحوها، والجمع شظايا، وهو من التشظي التشعب والتشقق، ومنه الحديث: فانشظت رباعية رسول الله ﷺ؛ أي انكسرت»[1]ومنه فمؤدى مصطلح التشظي هو الانكسار والتبعثر.

ب. الهويـــــة:

يعرفها الفرابي على أنها«هوية الشيء: عنيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المتفرد»[2] وتعرف في بعض المصادر على أنها «مصدر صناعي مركب من"هو"»[3]وتعني هنا أن الشيء هو نفسه لا يخالفه إلى شيء آخر؛ أي أن الشيء أو الشخص بما يحوي من تناقضات فهي تعبر في المجمل عن ماهيته.

ومصطلح الهوية في نموذجه الغربي"Identité"«من أصل لاتيني ويعني: الشيء نفسه[...]أي أن الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الآخر[...]و"Iden"ضمير الإشارة للغائب بمعنى هو ذاته ويستعمل[...]للدلالة أحيانا على الاختصار وعدم التكرار عند الإشارة إلى شيء محدد»[4].

والهوية هي الكل المتكامل الذي يعبر عن ذات الشيء أو الفرد، ويحدد ماهيته ووجوده، ويمكن أن يعبر عنه بأنه مجموع السمات الخارجية المدركة من الغير والداخلية المدركة من طرف الأنا، والباطنية الغير المدركة التي تبرز إلى السطح فجأة بين الحين والآخر، وكل هذه السمات سواء تكاملت أو تناقضت فهي مجملة تحدد هوية الذات ووجودها.

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مج4، دار المعارف، القاهرة، دط، دت،(مادة:شظى)، ص2268.

[2]- عفيف البوني:"في الهوية القومية العربية"، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2013 ص23.

[3]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ت.الأزمـــــــة:

الأزمة هي«مرحلة صعبة تمر بها مجموعة اجتماعية أو يمر بها فرد»[1]وهي أيضا فيما تعنيه«تصدع التوازن بين مكونات متباينة»[2]لهوية الفرد أو الجماعة مما تجعل الذات قابلة للإنهيار والتصدع عند أخف الهزات.

ث.الانتمـــاء:

«هي النزعة التي تدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين، بما يقتضيه هذا عن التزام بمعايير وقواعد هذا الإطار وبنصرته والدفاع عنه، مقابل غيره من الأطر»[3]حيث«يرغب الفرد عادة في الانتماء إلى جماعة قوية يتقمص شخصيتها ويوحد نفسه بها كالأسرة أو النادي أو الشركة»[4].

2. مستويات الهوية:

- **المستوى الفرداني**:«هي حقيقة فردية نفسية ترتبط بالثقافة السائدة وبعملية التنشئة الاجتماعية»[5].
- **المستوى الجمعي**:«مجموعة من السمات العامة التي تميز شعبا أو أمة في مرحلة تاريخية معينة»[6].

3. مصادر الهوية:

يحدد صامويل هنتنغتون عددا لامتناه من هذه المصادر التي وزعها على فئات كما سيأتي، وذلك مع العلم أنها لا تأخذ قدرا متساويا من الأهمية لدى الفرد أو لدى الغير الذي يهيكل هذا الفرد

[1]- المرجع السابق، ص28.
[2]- المرجع نفسه، ص29.
[3]- نجلاء عبدالحميد راتب: الانتماء الاجتماعي للشباب المصري دراسة سوسيولوجية في حقبة الانفتاح، مركز المحروسة، القاهرة، ط1، 1999 ص57.
[4]- أحمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية(إنجليزي-فرنسي-عربي)، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1982، ص39.
[5]- عفيف البوني: :"في الهوية القومية العربية"، ص25.
[6]- المرجع نفسه: ص30.

فقد ينشط بعضها في حين يتوارى البعض الآخر إلى حين أو إلى الأبد؛ فمثلا إن حدث صدام بين جماعتين تملكان نفس الجنسية، لكن إحدى الجماعتين تدين بالديانة الإسلامية أما الأخرى فمسيحية، في هذه الحالة ستخفت الهوية الوطنية إلى حين استدعائها من جديد، في حين تستعر الهوية الدينية لكلا الجماعتين المتناحرتين. بالعودة إلى مصادر الهوية فقد عرضها هنتنغتون كالآتي:

أ- سمات شخصية (إسنادية): تشمل الأسلاف، والنوع، والأقارب بالدم، والعنصر..

ب- السمات الثقافية: تشمل العشيرة، والقبيلة، العرق، اللغة، الدين، الحضارة، الجنسية..

ت- السمات الإقليمية: مثل الجوار، والقرية، والمدينة، الإقليم، الولاية، البلد، المنطقة الجغرافية القارة..

ث- السمات السياسية: [أما هذه السمات وما يحذوها فعلى عكس غيرها ليست جبرية بل تتحكم فيها إرادة الفرد في اعتناقها أو تركها، وغالبا ما تكون هشة يسهل العدول عنها إلى ما سواها إن تبين عدم جدواها]ومن هذه السمات الطائفة، العصبة، جماعة المصالح الحركة، القضية، الحزب، الأيديولوجيا..

ج- السمات الاقتصادية: الوظيفة، الحرفة، جماعة العمل، النقابة[1]. والهوية الفردية والقومية هي نتاج كلي للتفاعل بين مختلف هذه الروافد.

4. أزمة الهويات:

عند التطرق لموضوع الأزمة فهذا يعني قلب المعايير رأسا على عقب وخلخلة أركانها فتهتز قيمها وهي لحظة ميلاد الأزمة داخل الفرد؛ فإن كانت الهوية بمعناها الإيجابي تعني الانتماء والتفاعل والثبات، فإن الأزمة تتشكل من التعددية فالفصام فالتشظي فالخبوة أو الخفوت ثم الاندثار النهائي.

أزمة الهوية إشكالية طارئة، تشكلت مع تعقد المفاهيم وأساليب العيش والعلاقات الاجتماعية إثر المد العولمي الذي تبنى سياسة الهدم الدائم، ليجد الفرد نفسه دون جذور ترسي كيانه ودون معالم

[1]- صامويل ب.هنتنجتون: من نحن(المناظرة الكبرى حول أمريكا)، تر:أحمد مختار الجمال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009، ص62.

توضح أهداف وجوده، وحين تفطن العالم لعدم جدوى القرية الكونية التي غيبت مفاهيم الانتماء لديه راح يبحث في يأس عن معنى للهوية؛ فغدا من غير الممكن العودة بنفس السرعة إلى الوراء بحثا عن نقاء الهوية، وهذا بالفعل ما زاد من استفحال الأزمة والتي أضحت بعيدة عن الحل ف«أزمة الهوية مرتبطة بفقدان المرجعيات؛ ومختلف الانتماءات(العائلة،الطبقة،الأمة،الجماعة) التي كانت تسمح للأفراد بتفعيل هوياتهم داخل المجتمع، لم تعد حاسمة وتراجع دورها بشكل كبير» [1].

لم تتناول المعاجم القديمة مصطلح الهوية بالطرح ولا أي مصطلح يدور في فلكه، ربما لأن العرب قديما لم يتنبهوا لهذا المفهوم ولم يعنهم في شيء؛ ذلك أنهم غالبا ما كانوا يحرصون على نقاء نسلهم وسلالاتهم؛ فلم تخرج علاقات المصاهرات عن نطاق القبيلة غالبا أو القبائل المجاورة التي تربطهم بهم صلات قرابة. يبقى أبناء الإماء والعبيد الذين لم يعبء للأزمة الذاتية التي كانوا يعانونها، فهي لم تشكل لهم شيء يمكن الاهتمام لأمره، حيث لم يكن ينظر لهم بعين الاعتبار ولم يولوهم أهمية قصوى، حتى وإن كان أربابهم آبائهم فذلك لم يحدث فرقا في مكانتهم الاجتماعية ما دام أحد آبائهم ينتمي إلى الطبقة الدنيا، وهم في الغالب لم يسعوا للتعبير عن أزمتهم، فالاستلاب الذي عانوه جعل هوياتهم تبدو لهم ولغيرهم بلا قيمة، ذلك باستثناء ما أتت به حركة الصعلكة من رفض للواقع؛ على اعتبار أن جل الصعاليك كانوا أبناء إماء كالشنفرة وسليك..إضافة لشخصية عنترة ابن شداد الذي على الرغم من كونه ابن لأحد أشراف القوم إلا أنه عانى من العبودية على يد أهله، وتوضح قصته حربه النفسية تجاه هذا التمييز، ليحرص على افتكاك الاعتراف، ولربما يندر وجود مثل هذه الانتفاضات المتطرفة داخل المجتمع القبلي في أواسط العبيد«ففعاليات الحضور والانجاز واثبات الذات[...]تصطدم أبدا بحس الأقلية الذي يشعر فرده بالدونية والمواطنة ذات الدرجة الثانية في مجتمع[...]عشائري متزمت ومتمركز حول أنموذجه تمركزا شديدا[...]وكأنه حق وراثي[...]كفلته لها الشرائع الدينية والدنيوية» [2].

---

[1] – محمّد سعدي:«الهوية..من الوحدة إلى التعدد»، مجلة آفاق المستقبل، العدد7، أكتوبر 2010، ص82.

[2] – أمين معلوف: الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء و العولمة)، تر:نبيل محسن، دار ورد، دمشق، ط1، 1999، ص53.

الفصل الأول:

إحداثيات خطاب الأزمة

المبحث الأول: العولمة ودورها في بذر الأزمة

المبحث الثاني: المواطنة وعنصرية الواقع

المبحث الثالث: هوية الذات والغيرية

المبحث الأول: العولمة ودورها في بذر الأزمة

بعد تقهقر المعسكر الشرقي الذي يمثله الإتحاد السوفييتي، مخليا الساحة في السيادة لقطبية واحدة، وما اتخذته هذه الأخيرة من دعايات لعولمة العالم، ذلك إثر ما صاحبها، من ثورة معلوماتية أسهمت إسهاما فعالا في هذه العملية.

ورغم أن العولمة من جانبها الثقافي والاقتصادي خاصة، سعت لتذويب الحدود الجغرافية وصهر العوالم في قرية صغيرة، إلا أنها لم تتمكن من التصدي للحدود الإثنية التي تثقل كاهل المجتمعات–لكونها متجذرة في ذهنية الإنسان ما يشهد عليه التاريخ في كل مجتمعات العالم– وترمي بها–في كثير من الأحيان–في أتون التهلكة لتبقى كل طبقة تطفو فوق الطبقات الأدنى، أو ربما أسهمت بطريقة ما في استفاضة التعصبية العرقية وتوسيع دائرة صراع الحضارات؛ كونها قربت البعيد اللغوي والثقافي. ولعله ما يلاحظ على مجتمع كلبنان أو العراق باختلاف إثنياته وتنوع أديانه ومذاهبه ولغاته، كان مضطلعا –في زمن مضى– بتعدديته، ولم يشكل له ذلك الزخم أي هزات في بنياته، لكن اليوم أصبحت تلك التعددية تشكل عبئا كبيرا على عاتقه، إذ راحت تنخره من الداخل وتطيح به.

من جهة أخرى فإن ما أفرزه التعولم، من تقريب الأقاصي إلى بعضها البعض«فالعولمة، بحكم منطقها، أفضت على مدى القرن العشرين كله حركة هائلة للسكان غيرت وجه المجتمعات»[1]ففي دولة كالكويت مثلا شهدت قفزة اقتصادية نوعية، بارتفاع صادرات النفط، جعلته في حاجة إلى يد عاملة خبيرة، خاصة وأن التركيبة السكانية–على محدوديتها– في قسم منها كانت تزاول النشاط التجاري والصيد البحري، والقسم الأوفر كان من البدو الرحل، ذلك إضافة إلى ما يمكن تسجيله حول حداثة الدولة الكويتية، وما مرت به من ظروف سياسية صعبة. ما دعا بها من أجل النهوض باقتصادها إلى فتح الأبواب للعمالة الوافدة من خارج الحدود.

وبسبب حياة الفاقة وتقلص فرص العمل الذي كانت تعانيها بعض المجتمعات ذات الاقتصاد البائس كالهند والفلبين..شكل لهم هذا الفتح فرصة ذهبية ونوع من الترف، لذلك نزحت اليد العاملة وبوفود كبيرة إلى دول التعاون الخليجي(جنة الخلاص كما يسمونها)، التي تعد الكويت واحدة من أعضائها«يشكل الأجانب جزءا

[1]– فاتح عبد الجبار: "معنى العولمة"، العولمة والهوية الثقافية، سلسلة أبحاث المؤتمر7، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص63.

كبيرا من تعداد السكان في الخليج، حيث يتراوح عددهم[...]66%في الكويت»[1] من إجمالي عدد السكان أي أن السكان المحليون يشغلون نسبة 34%فقط.

تتجلى تأثيرات استجلاب العمالة على الهوية من مستويين سواء على المقيم أم الوافد:

- تكمن تبعاتها على المقيم خاصة في ظل وجود عدد كبير من العمال الأجانب الذين يفوق عددهم في أحيان كثيرة عدد السكان الأصليين(في بعض دول الخليج)؛ وذلك أنه عندما يفدون محملين بثقافاتهم يؤثر ذلك على الفرد حين احتكاكه بهم، ضف إلى ذلك أن الجيل الذي يتربى على يد الخدم الأجانب ولابد أن يتأثر بهم، على اعتبار أن السنوات الأولى هي عماد تشكل الهوية، فالقيم التي من المفروض أن يكتسبها الطفل من الأبوين يكتسبها من المربي، فعلى احتشام التواصل والشح العاطفي بين الأولياء والأبناء، في مقابل ما تلعبه المربيات من أدوار لسد الثغرات العاطفية التي خلفها آبائهم فتتشكل لدى الطفل هوية ممسوخة ممزقة ومضطربة.

صورت الرواية تأثر المقيمين بالانفتاح الثقافي، وبالوفود العاملة في الشكل الخارجي، سواء في الهندام أو في تسريحات الشعر

«البعض يرتدي ثيابا تحاكي آخر صيحات الموضة، والبعض بالثياب التقليدية، أناس بالشورت[...] ثياب ضيقة جدا رغم نحافة مرتديها..شباب يسرحون شعورهم بطريقة مجنونة[...]أجساد رياضية منفوخة[...]فتيات كثيرات..تصفيفات شعر مختلفة[...]تنانير قصيرة[...]فتيات تشبهن نجمات هوليوود..أخريات بمساحيق تجميلية تظهرهن كفتيات الغيشا اليابانيات»[2]

وقد تأثر المواطنون بالعادات السيئة للأجانب، كشرب الخمر مثلا وممارسة القذاعة، متوارين في المباني التي لا تخضع للرقابة، والتي يسكنها الوافدون، لينجرف الشباب للمد ملتحفين بالحرية الممنوحة لهذه الجاليات«يقضي مشعل عطلة نهاية الأسبوع عادة في شقته في الدور الثامن، في البناية التي أسكن، يمارس بها ما لا يستطيع ممارسته في مكان آخر على حد قوله»[3].

---

[1]- عطية أحمد: «ما وراء العمالة: المقيمون الأجانب في دول الخليج»، العمالة المهاجرة في منطقة الخليج(تقرير موجز رقم2)، مركز الدراسات الدولية والإقليمية، كلية الشؤون الدولية، جامعة جورجتاون، قطر، د.ط، 2011، ص4.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2012، ص204.

[3]- المصدر نفسه: ص346.

- ويكمن أثرها على الوافد أنه حين اصطدامه بثقافة الدولة المضيفة البعيدة كل البعد عن ثقافته«جاءت والدتي للعمل هنا، تجهل كل شيء عن ثقافة هذا المكان[...]حتى الشمس تقول والدتي:"شككت في بادئ الأمر أنها الشمس ذاتها التي أعرف!"»[1] يتحتم عليه في أحايين كثير التخلي عن كثير من عاداته وأجزاء من ثقافته لحساب الوطن المضيف، إما طوعا أو كراهية، فتتكبل الممارسات الحرة ومنه الهوية.

تحالف ضد هذه الفئة الاغتراب والفقر والقهر، والتهميش والمهانة، والعنصرية التي عانت منها تحت أسقف مخدوميهم في البلدان المضيفة المتعصبة لعرقياتها، واستغلال ذويهم لهم الذي زاد من صعوبة الوضع عليهم

«كانت فكرة السفر إلى الفلبين[...]بدأت تتقافز داخل رأسي. رفضت أمي الفكرة[...]لست أدري إن كانت ترجو بقائي من أجلي أم من أجل العائلة التي أصبحت بحال أفضل لقاء ما أرسله لها من أموال»[2]

ما أدى بهم لليأس والقنوط من الوضع القاسي، فإما أن يتركوا أعمالهم ويعودوا إلى فضاءاتهم الأولى(بلدان المنشأ) ويكتفوا بمشاهدة الفقر يفتك بذويهم بدلا من كرامتهم، أو الاستسلام وتحمل القمع والذل، والتعامل كما أريد لهم في ظروف صعبة، أو التخلص من التفكير بالموضوع بشكل نهائي بزهق أرواحهم أو أرواح بريئة نكالا للظلم الذي يكابدونه«خادمة فلبينية تنحر رضيعا انتقاما من مخدومتها[...]خادمة فلبينية تنتحر شنقا»[3].

اضطر العمال إلى الحلول في الأراضي الكويتية تاركين أحلامهم ورائهم لتحسين أوضاعها المعيشية وكسب لقمة العيش، لكن النظرة الدونية كبلت هوياتهم وأباحت كرامتهم.

وتصور الرواية حالة التمييز العنصري والتحقير الذي يتعرض له الفرد منهم من العتبات الأولى للمنفى؛ حيث تتعرض الشخصية(هوزيه) للاعتداء اللفظي في المطار فقط بسبب ملامحها

---

[1]- المصدر السابق: ص29.

[2]- المصدر نفسه: ص312.

[3]- المصدر نفسه: ص340.

«قبل أن أخرج منه الجواز صرخ بي الرجل بطريقة فظة صعقتني. أشار بيده نحو الطابور الآخر[...]قال كلاما لم أفهمه[...]يتحدث بصوت عال[...]يتفوه بكلمات غاضبة. ثم يحرك أصابعه بالقرب من رأسه ليفهمني ما عجز عن ترجمته:"أنت مجنون!"»[1]

ولعل هذه النظرة النمطية التي يشترك فيها قطاع كبير من أبناء المجتمع، والتي تسعى لتهميش الآخر وإقصاء هويته، وبسبب ما يلاقيه الفرد منهم من ضيم، تجعله يصاب بكبت انفعالي، ولا تجد متنفسا لها إلا داخل تجمعاتها العرقية

«خارج الشقة شباب ثلاثة[...]ألقيت التحية أثناء مروري بهم "السلام عليكم".رد أوسطهم ساخرا من لهجتي[...]"سلامووو عليكوووم"كان يسحب طرفي عينيه بسبابته ساخرا من ملامحي الآسيوية[...]لست أدري لماذا شعرت بالإهانة[...]خرجت مني كلمة معتوه [...]تبادلوا النظر فيما بينهم مستفهمين»[2]

وكأن الفرد منهم لا يحق له رد اعتباره إذا ما امتهنت كرامته؛ وهو ما تشير له لفظة "لست أدري" حتى أن استجابته أثارت دهشتهم، إذ ليس من الطبيعي أن يصدر رد فعل كهذا من عامل أجنبي«كثيرا ما نسمع، نحن العاملين في المطبخ، صراخ أحدهم على مسؤول الطلبات[...]في الأيام الأولى كنت أشعر بالغثيان. ولكن، مع مرور الأيام وتكرار العملية[...]اعتدت الوضع»[3] فالوضع الساري والإهانات المتكررة، وما يضاف إليه من الحاجة الملحة-بسبب الفقر المدقع- للحفاظ على مواقع عملهم، جنى على انفعالاتهم بالتخدير.

أتت الرواية على ذكر العديد من الشخصيات العاملة المعطوبة التي تعاني القهر والجور، وتراوحت مآسيهم بين:

- تجاوزات لفظية وامتهان للكرامة الإنسانية«سألت خولة:"جدتي والببغاء يصيحان بالكلمة ذاتها بعد أن يناديا على لوزاقيميندا، ماذا تعني هذه الكلمة؟"[...]قالت[...]:"حمارة"»[4].
- ساعات عمل متواصلة دون إجازات، وإن وجدت فعلى فترات متباعدة

1- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص185-186.
2- المصدر نفسه: ص310.
3- المصدر نفسه: ص333.
4- المصدر نفسه: ص249.

«الخدم يعملون منذ السادسة صباحا وحتى العاشرة ليلا. يقول بابو أن البعض، في البيوت المجاورة، لا يوجد لديهم وقت محدد للعمل. ساعات العمل مرتبطة بحاجات أفراد البيت. في أي وقت يحتاج أحدهم شيئا لابد أن يكون الخادم على أهبة الاستعداد[...]لاحظت أن راجو يتمتع بإجازة أسبوعية. بابو وزوجته لاكشمي يتمتعان بيوم راحة كل شهر. أما لوزقيميندا فلا تتمتع بشيء من هذا»[1].

- استغلال مخدوميهم لهم لضعفهم وحاجاتهم،كوسيلة لإشباع شبقهم«بقيت مستيقظا حتى الصباح أفكر في أمر الفتاة. لابد أنها، في مكان ما، تدفع ثمن إقامتها بصورة غير شرعية»[2]لقد كانت أجسادهم تذكرة إقامتهم الغير شرعية، يقدمونها للقلوب النزقة الغير مسؤولة التي استغلت السلطة الممنوحة لها لإذلال كرامتهم

«أكدت دراسة خليجية رسمية وجود ما يزيد عن مليونين من عاملات المنازل في دول الخليج العربي يمارسن أعمالهن دون غطاء قانوني، ويواجهن مشكلات عديدة أهمها سوء المعاملة والانتهاكات الجنسية وعدم دفع الرواتب»[3].

- نمطية النظرة التي تعرضهم للتحرش بسبب النزعة اللواطية لأكثرهم«ما الذي يدعوه لملاحقتي؟ هيأتي لا تدل على أنني من أولائك المتأنثين، وإن كان العديد من أبناء جلدتي كذلك»[4]. كذلك ينظر للنساء الأجنبيات–كلهن على حد سواء– بنظرة الريبة، وكثيرا ما يتهمن بالعهر«من أين لي أن أضمن، إذا ما تركتك تخرجين، ألا تنتفخ بطنك بعد أشهر؟!»[5].
- السجن دون فتح محاضر تحقيق«من دون أن يحقق معنا أحد نقلنا من الحافلة رأسا إلى غرفة الحجز»[6].

---

[1]- المصدر السابق: ص263.
[2]- المصدر نفسه: ص318.
[3]- أمل المعطي: «ظاهرة العاملات الأجنبيات في الأسر السورية(دراسة ميدانية في مدينة دمشق)»، مجلة دمشق، المجلد28، العدد2، دمشق 2012، ص325.
[4]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص335.
[5]- المصدر نفسه: ص263.
[6]- المصدر نفسه: ص317.

- تجريدهم من كيانهم الإنساني، بإتباع سياسة التشييء في التشغيل؛ بتحويلهم إلى "روبوتات" مقموعة الأحاسيس تنفذ الأوامر ولا تكل العمل«إنهم يعاملوننا على أننا لا نشعر ولا نفهم»[1]. أما المعاملات المتبادلة فكانت قائمة على التحفظ وعدم الائتمان«الخدم، بشكل عام، لا يؤتمنون على أسرار البيوت»[2].

تعيش الشخصيات ببناء وجداني مهشم، تحت حصار المعاناة، وطمس واستلاب الهوية؛ حيث يعاملون بازدراء وسط مجتمع متعال يهمش المختلف ويحقره، لتعبر الرواية عن منظومة العلاقات المأزومة بين المقيم والوافد. ولعل الفرد منهم حين يعامل معاملة جيدة، ينجرف نحو عواطفه متناسيا كل قيمه؛ بسبب هشاشة تركيبته النفسية جراء القهر، فالمعاملة الحسنة الحميمة التي تعلن على حين غرة تنعش في داخله شعورا بالإنسانية، بعد أن فقدته في أرض أسيادها، ليقعوا فريسة صياديهم من المستخدمين، وإن كانت الضحية تعلم يقينا بنوايا هذا الأخير

«حين لامست كفه كتفي ذات مساء[...]تمنيت ألا يبعد كفه. نسيت كل الإهانات التي تكيلها لي السيدة الكبيرة. تعمدت بعد ذلك أن أغضابها بين الحين والآخر[...]في انتظار أن يأتي الليل حاملا كف والدك الحانية لتمسح على كتفي»[3]

سلطت الرواية الضوء على عدة عوالم متناقضة تجمعها علاقات نفعية، معبرة عن ذروة أزمة العمالة في سياق اجتماعي مضطرب، الأمر الذي أفضى لتشظية الهوية على المستوى الفردي للطبقة العاملة الأجنبية المهمشة فالإكراهات التي يتعرضون لها بالإضافة إلى المعاملة النابية، أدت إلى تقهقر ذواتهم وانحطاط قيم الهوية داخلهم.

بما أن الأنا الساردة تنتمي بشكل ما إلى الطبقة الوضيعة"العاملة"، وإن كانت حلقة وصل بين الإثنيتين، إلا أنها شكلت امتداد لأوجاع الفئة المعطوبة؛ ذلك بسبب الشلل الذي أحدثه المجتمع الكويتي في قيم شخصيتها رغم انتماءها له«سوف أعيش في الكويت كأي فلبيني مغترب»[4]فهوزيه هو ثمرة لقاء بين خادمة فلبينية ومخدومها، لكن المجتمع رفضه بسبب نسبه لأمه، وما ورثه عنها من ملامح، لذلك فقد عاش الاغتراب في مجتمعه، معبرا عن قسوة المشاعر وتصخرها وتصلب القلوب أمام الغريب حتى وإن كانت تجمعه روابط نسب

[1]- المصدر السابق: ص240.
[2]- المصدر نفسه: ص230.
[3]- المصدر نفسه: ص35-36.
[4]- المصدر نفسه: ص330.

وإياه«هم يرفضون أن أصير واحدا منهم، وإن تمكنت من ذلك فكيف سيرونني في تقسيماتهم الاجتماعية المعقدة؟»[1].

طرح موضوع العمالة الأجنبية لم يكن حكرا على الرواية السنعوسية، ولا على الخطاب العربي وحده، وإنما تطرق له نخبة من الروائيين الآسياويين أيضا، وإن كان كل على طريقته ومن وجهة نظره الخاصة، لكنها مجتمعة حاولت نقل الواقع وفضح خبايا القضية المسكوت عنها، لتعكس معاناتهم، أو المعاناة التي تسببوا بها. ومن الروايات التي تناولت القضية "بعيدا إلى هنا" لإسماعيل فهد إسماعيل، و"خرائط التيه" لبثينة العيسى و"أيام الماعز" دانييال بنيامين، "معادلة الأمل" رانجيت ديفاكارات.

[1] – سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص278.

المبحث الثاني: المواطنة وعنصرية الواقع

يتحقق التفاعل الايجابي للفرد ومجتمعه وواقعه، فيصبح عضوا فاعلا مؤثرا بقوة في دولته الجغرافية والسياسية، بفضل شعوره الولائي الذي يحكم تفكيره الاجتماعي، متواطئا معه ما تشرعه له الدولة من حقوق كمواطن منتم إليها بصفة قانونية، يحققه له مولده على أرضها أو وراثته لجنسية أحد الأبوين.

ف«المواطنة صلة اجتماعية وسياسية وقانونية[...] بين شخص ودولة، وتجعله يمتلك حقوقا[...]شرط أن لا يكون محروما كليا[...]من ممارسة هذا الحق بسبب الحرمان من حقه القانوني الأساسي(الحرمان من الجنسية)»[1]

وقد تناولت المنجزات السردية هذه المفاهيم بكثير من النبش والاستقصاء، غير أنها لم تنظر فيها على أنها وقائع منجزة كما هي مقررة؛ لأن الواقع ليس بتلك المثالية، لكن تناولت الواقع المخالف لما هو مقرر. فلطالما مارس الواقع ضغطه على الفرد في المجتمع ليدفعه في أحيان كثيرة إلى التهاوي في عزلته النفسية، بفضل ما يسوقه له من أزمات تشل مشاركته في الحياة الاجتماعية وتفاعله معها.

ولعل مفهوم العنصرية من أهم المفاهيم التي أنبتتها القبيلة والإثنيات منذ يزوغ فجر البشرية، وهي ظاهرة اجتماعية تجعل من بعض الأصناف العرقية أدنى من بقية الأجناس؛ فقط لأنها أقلية وتخلع عنها مفاهيم مواطنتها، بل وتجردها من صفتها الإنسانية. طفت هذه الظاهرة في العديد من المنجزات السردية التي هز الواقع القاسي المجحف كتابها، فرفعوا أقلامهم معبرين عن معاناة هذه الفئات في مجتمعات إثنية؛ ومن هذه الروايات التي تعهدت بهكذا مواضيع: "جاهلية" لليلى الجهني،"لأني أسود" لسعداء الدعاس.

[1]– سيدي محمد ولد يب: الدولة وإشكالية المواطنة(قراءة في مفهوم المواطنة العربية)، دار الكنوز المعرفية، عمان، ط1، 2011، ص59.

أولا: تعددية الانتماء وإرباكات الولاء

يتصاعد مفهوم العنصرية ويتشعب ثم يحبل ليلد قضية أكثر استعصاء وتعقيدا وأكثر مأساوية قضية أعمق تناولت الذات المشرذمة الساعية بروح اليائس للبحث عن ماهيتها وتموقعها داخل مجتمع ولدت من صلبه، فرفضها لحظة ولادتها-وحتى قبل ذلك-لتنفصل عنه؛ بتعبير آخر هي قضية أولائك الأفراد الذين منيوا بثنائية الانتماء ثنائية النسب —ولدوا لزواج مختلط- فبدل من أن تتسع دائرة حقوقهم في مجتمعين مختلفين انتسبوا له قصرا، بدلا من ذلك تهضم حقوقهم ويمارس عليهم النبذ والتهميش ليكتووا بلظى الغربة؛ تتصدى لهذا الموضوع مجموعة من الروايات من بينها "الزواج المختلط" أحمد الحيجاوي،"مرايا" مصطفى شعبان،"سيقان ملتوية" زينب احمد حفني، هذا بالإضافة إلى رواية "ساق البامبو" التي ساقت معانات ثمار الزواج المختلط.

قضية معاناة الأقليات في مجتمعات رجعية التفكير أصبح هاجس الفضاء الروائي، وراهنت عليه الرواية الكويتية بشكل خاص، فشهدت بذلك زخما في التأليف حول هذه الفئة المعطوبة والمقهورة اجتماعيا، في محاولة للغوص في عمق واقع الطبقات الهشة في المجتمع الكويتي والخليجي والعربي بصفة عامة. ورواية ساق البامبو لسعود السنعوسي هي واحدة من تلك الإنجازات التي دوى صداها قويا في الكويت وفي محفل البوكر ومنها إلى جميع الأقطار العربية، محاولة إيصال صرخة عيسى وأشباهه ونقل معاناتهم إلى أبعد مدى.

الرواية تصور بصدق أوجاع هذه الفئة في صراعها مع عالمها المتشبع بسلبية المعتقد ورجعية التفكير ممثلة إياها في البطل "هوزيه مندوزا أو عيسى الطاروف" فهذه الشخصية المأزومة التي تبحث عن شرعيتها الاجتماعية عن ذاتها في مجتمع من المفروض أن تكون جزءا منه، قطعة من صلبه، لكنها تصطدم بواقع فاجع لا يترك لها مجالا للتعبير عن ذاتها المتعطشة لحنو العائلة والذي حرمت منه لمدة طويلة.

هوزيه كان يمثل فئة موسعة لمعاناة المهجنين الذين كانوا ثمرة لزواج مختلط الجنسيات؛ كانت أمه خادمة فلبينية تعمل في بيت الطاروف في الكويت، أما أبوه "راشد الطاروف" عسكري من عائلة

فاحشة الثراء. زواجهما كان فاشلا ذلك بسبب رفض العائلة والمجتمع ورفضه هو الآخر نوعا ما لهذا الزواج، ولعل ما يمكن أن يسجل هنا على أنه قد تزوج الخادمة "جوزافين" لا بدافع الحب ولكن بدافع سحر نزوة عابرة، وإعجاب كان مصدره رقة جوزافين وتمنعها وصدها له، في ذات الوقت الذي أفضى إلى ورقة زواج عرفي جمعتهما، عقد زواج غريب الملامح «هذا الزواج الذي لا يشبه الزواج»[1].

«لم يخطئ حدس أمي إزاء تشبيهه إياها بفتيات تايلاند.كان والدي يلمح إلى شيء ما [...]صرامة أمي في هذا الأمر تلاشت حين سألها:"نتزوج؟"[...]أشك في أن ما قام به والدي كان رغبة صادقة في الزواج من أمي، لعله أراد أن ينال ما اشتهاه وحسب»[2].

ف"راشد" لم يكن يرغب فعلا في الارتباط، لكنه يسعى-كما سبق الذكر- لإرضاء رغبة معينة وبمجرد اختبار ذلك بالفعل، يصحو شعور آخر في مقابل خبو الشعور الأول، يثيره موقع كل من الزوجين(في التصنيف الطبقي)، وموقف الأسرة والمجتمع من هذه العلاقة، حيث«لا يصمد الشعور الغرامي أمام السيطرة التملكية، إذ إنها تثير بالضرورة تفتت الهوية الجديدة، التي اعتقد المرء أنه عثر عليها في الحب. تتكشف هذه الهوية عن كونها وهمية بفعل التواطؤ الذي يثير تملص هذا وتخلص ذلك»[3] وما يؤيد ذلك رفض الوالد لولده حين علم بحمل زوجته فيحاول إقناعها بالإجهاض، هذا الرفض الذي عززته العائلة والمجتمع فيما بعد، بحيث ومن المؤكد أن العلاقة الزوجية«لا تصمد[...]أمام الإكراهات العادية للوجود اليومي»[4]بحيث تنتهي العلاقة كما بدأت فجأة

«أخبرت والدي بأمر حملها ما إن أصبح إسقاطي من أحشائها أمرا مستحيلا[...]ارتبك حين أصبح الأمر جديا. عنفها لصمتها طيلة هذه المدة .

---

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص380.

[2]- المصدر نفسه: ص38-39.

[3]-كلود دوبار: أزمة الهويات(تفسير تحول)، تر: رندة بعث، المكتبة المركزية، لبنان، ط1، نوفمبر2008، ص155.

[4]- المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

تقول:"في ذلك الوقت فقط اكتشفت أنه لم يكن زواجا حقيقيا"لمح إلى فكرة الإجهاض. ولما كان الوقت متأخرا وعدها بأنه سيتصرف في الوقت المناسب»[1].

الزواج المختلط ينعكس بصورة مباشرة-خاصة في حالة تصدع العلاقة الزوجية- سلبا على الأبناء الذين يقاسون المرارة من تباعد ثقافة الأبوين، وفي حالات الطلاق كثيرا ما يجبرون على المفاضلة بين الانتمائين.

فهذا التقاطع بين الإثنيتين كان سببا في وجود طفل غريب الوجه مهجنا لا يشبه الفلبينيين ولايشبه الكويتيين بل هو مزيج من الإثنين، طفل من طبقة المولدين (ليس كمولدي الأندلس لكن مولدي الفلبين)«عندما كنت هناك، كان الجيران وأبناء الحي[...]ينادونني Arabo، أي العربي[...]أما هنا[...]أكتسب[...]لقبا جديدا[...]ذلك اللقب هو..الفلبيني!»[2].

فملامحه تنغص عليه حياته، ففي الكويت تختفي ملامحه العربية عمن حوله ليبدو فلبينيا، أما في الفلبين فهم لا يرون فيه سوى عربيته«لو كنت فلبينيا هناك..أو عربيا هنا!..لو تنفع كلمة لو»[3].

هذا الوجه المكولج هو«وجها برقع مأخوذة من وجوه شتى»[4] مضافا إلى إحساسه المزدوج بانتمائه إلى بلدين مختلفين؛ ذاك الشعور الذي تتجاذبه الحالة الناتجة عن عمق إحساس الإنسان بانتسابه إلى جماعتين مختلفتين[5]، ما أجرى في دواخله شعورا انفصاميا وتنازعيا في الولاء، «فالولاء إخلاص وحب شديدان يوجههما الفرد إلى موضوع معين كالوطن»[6] والإنسان يكتسب انتمائه وفق روابط روابط يفرضها عليه انتسابه إلى جماعة ما، وفق ما يقتضيه المولد وهوية الأبوين .

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص42.

[2]- المصدر نفسه: ص17-18.

[3]- المصدر نفسه: ص18.

[4]- المصدر نفسه: ص49.

[5]- مُحَمَّد عبد الرؤوف عطية: التعليم وأزمة الهوية الثقافية، مؤسسة طيبة، القاهرة، ط1، 2009، ص29.

[6]- المرجع نفسه: ص31.

فهو فلبيني بحكم المنشأ وكويتي بحكم انتسابه إلى والده الذي أورثه جنسيته«بصفة رسمية...أنت كويتي»[1]حيث استطاع بمساعدة عمته "هند"الحصول على أوراق رسمية تثبت كويتيته.

«في كل رجل تتلاقى انتماءات متعددة تتعارض أحيانا فيما بينها وتجبره على خيارات ممزقة»[2] فعندما يصبح الوطن وطنان يجذب كلا منهما الذات ويمارس عليها ضغوطا جمة، محدثا داخلها صراعا حادا، يؤدي بها في الغالب وفي نهاية المطاف للتمزق الانشطاري بين الضفتين، والتفكك فالتشظي ثم التقهقر. عندما تتعدد هوية الشخص يتولد في داخله صراعا داخليا مفهومه الولاء وقلق التموقع.

«يتهكم أحدهم على الشباب الكويتيين[...]ينعتهم بصفات مزعجة..أتذكر أبي[...]ترتجف الكأس في يدي[...]كنت أستمع إليهم. أشعر بالضياع بين هنا وهناك..أكاد لا أعرفني[...]في أذني تتكرر اتهاماتهم للكويتيين..وفي عيني صور لأبي وخولة وعمتي هند وجدتي [...]التفت إلى المتذمر أقول:"عد إلى الفلبين إن كان الوضع هنا لا يعجبك! نظر إلي مستهجنا:"وهل أنت سعيد ببقائك هنا؟". كان انسحابي من الشقة بديلا عن إجابتي التي فشلت في بلوغها»[3]

تصارع في ذاته ولائه للهنا والهناك؛ للكويت والفلبين، جعله يهتز ويستعر من الداخل، فشعوره بالانتماء أوقد في نفسه انفعالا وجدانيا جياشا جعله يتبنى سلوكا عدائيا تجاه الذين شتموا قومه الذي اختزله تفكيره في عائلته، مع شعور بالخيانة لقومه الآخر الذي تجسده هذه المجموعة وكنتيجة حتمية «سيجد[...]أنه منقسم وممزق ومحكوم عليه أن يخون إما وطنه الأصلي وإما الوطن المضيف. وهي خيانة سيحياها حتما بمرارة وغضب»[4] ولم يصادر ولائه لعائلته الكويتية رفضهم له «للكويت وجوه عدة هي أبي الذي أحببت..عائلتي التي تتناقض مشاعري اتجاهها[...]انتمائي

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص244.

[2]- أمين معلوف: الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء والعولمة)، ص9.

[3]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص309-310.

[4]- أمين معلوف: الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء والعولمة)، ص37.

الذي أشعر به إذا ما أساء أحدهم إلى أبنائها بصفتي واحدا منهم»[1].تصرح الشخصية المأزومة بأن شعورها بالانتماء لم يكن صادرا من تفاعلها الايجابي مع بني جلدتها، وممارستها لحقوقها وواجباتها على أرض وطنها(وهي ممارسات من صلب الشعور الإنتمائي) لكن ما يحرر مشاعرها تلك الرابضة في عرينها هو المساس اللفظي الصادر عن الغرباء الموجه للكويت، والذي يثير فيها شعورا بأنها جزء منها، رغم النزاعات الشعورية بين الحين والآخر التي تفند غربتها«الكويت هي خذلان أبنائها لي بنظرتهم الدونية»[2] ذلك الذي أحدث في داخلها شرخا أدى بها للتقهقر ثم النكوص إلى نقطة المنطلق، وهو الوطن الذي تعذر عليها ممارسة انتمائها بافتقاره للحميمية الأسرية«بل إنه يضمر قوة طاردة في العلاقات القائمة فيه»[3].

«خارج الشقة شباب ثلاثة[...]ألقيت التحية أثناء مروري بهم "السلام عليكم".رد أوسطهم ساخرا من لهجتي[...]"سلامووو عليكوووم"كان يسحب طرفي عينيه بسبابته ساخرا من ملامحي الآسيوية[...]خرجت مني كلمة معتوه فلبينية:" SIRA ULO!".تبادلوا النظر فيما بينهم مستفهمين.تبا لي! حتى شتيمتي تعيدني إلى بلاد أمي»[4]

رغبة في داخله تتأجج بممارسة انتمائه الكويتي، لكن وجهه ولغته تعيدانه دائما إلى منشأه الأول. يفصح السرد عن شخصية متخبط بين عالمين، تعلن عن تلازم اهتزاز انتمائها واضطراب ولائها فمن الصعب أن يضطلع المرء بولاء مزدوج، إضافة لما يحمله الواقع الصادم من مآس تقذف به دائما وكلما أراد الاندماج في المجتمع إلى الانكفاء على ذاته فتصبح مواطنته سالبة، بإصرار هذا

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص324.

[2]- المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3]- عبد الله إبراهيم : السرد الاعتراف والهوية، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 2011، ص15.

[4]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص310.

الواقع على تذكيره باختلافه عن غيره، وهو الذي يولد لديه شعورا بالغربة ف«نظرتنا هي التي تحتجز الآخرين في انتماءاتهم[...]والقادرة على تحريرهم أيضا»[1].

«اقشعر بدني.رعشة تسللت من أعماقي إلى أطرافي ما إن شرع لاعبو المنتخب الكويتي بترديد النشيد الوطني[...]وجدتني أترنم بلحن النشيد[...]شعور لا يمكنني وصفه ذلك الذي ينتابني»[2]

بحيث ينازعه في كل لحظة شعوره بالولاء لوطن أبيه، فأي مؤثر له علاقة مباشرة بوطنه ذاك يهز فيه رعشة جوانية تصدر من أعماقه محركة دواليب الانتماء لديه، مذكرة إياه بانتمائه الراكد؛ على اعتبار أنه على أرض الفلبين لم يعد يمارس ذلك الانتماء فقد ربض في داخله في انتظار أي مؤثر خارجي ليحرر حركتها.

«ركلة سددها اللاعب الفلبيني ستيفان شروك استقرت في مرمى المنتخب الكويتي [...]الجميع يصفق بفرح إلا أنا الذي كنت أشعر بأنني ركلت الكرة في مرماي [...]أحبط الجميع في الدقيقة الـ61 عندما سجل يوسف ناصر هدفا لصالح منتخب الكويت.

ها أنا أسجل هدفا جديدا في مرماي الآخر..

النتيجة حتى الآن مرضية بالنسبة لي. المتبقي من زمن المباراة يزيد عن نصف الساعة لست أرغب بمتابعتها. لا أريد أن أفقد توازني. لا أريد أن أخسرني أو أكسبني. بهذه النتيجة أنا..متعادل»[3]

الصراعات في داخله التي فرضها شعوره كونه من وطنين متباعدين؛ الفلبين التي تربى بها وكفلته صغيرا واستقام عوده بها، أما الكويت التي عاش يمنى بخيرات فردوسها، فهي على الرغم من أنها لم

[1]- أمين معلوف: الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء والعولمة)، ص24.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص395.

[3]- المصدر نفسه: ص395-396.

تعد الجنة التي راودته في قصص أمه؛ بل عاشها جحيما إذ نبذته وللمرة الثانية إلى التيه، رغم ذلك فقد نمى شعور في داخله بالارتباط بها بعد ملامسة قدميه لأرضها، لذا لم يستطع التحلل من أحد الرابطين فبقيت ذاته معلقة لا تمتد لموقعها بين هوية ترفضه وهوية يرفضها، وهي بدورها لا تقبله قبولا تاما؛ ليعرض في نهاية المطاف عن البحث اللانهائي الألم، رغبة في الخلاص من الدوامة التي يعيشها أو على الأقل بالتوافق معها، فهو من الذين أجبرهم

«قدرهم أن يكونوا صلات وصل وعبّارات ووسطاء بين مختلف الجماعات والثقافات المتنوعة.وهذا بالضبط ما يجعل صراعهم مثقلا بالدلالات:إن لم يكن هؤلاء[...] قادرين على الاضطلاع بانتماءاتهم المتعددة وإذا كانوا دائما ملزمين أن يختاروا فريقهم»[1]

يجدون أنفسهم في الغالب خارج التخوم مرتبكين منهارين، لذا أذعن الرضى بالتعادل النفسي للحس الولائي، فالكويت والفلبين يجب أن تتعادل كفتهما على ميزان الولاء، لأن الانحياز إلى أحد الهويتين سيشعره بالخيانة للأخرى، ففضل البقاء على حياد، وبالتصالح مع هويته المركبة منظما إلى مجموع الكائنات الحدودية التي اخترقتها الصدوع الإثنية[2].

[1] – أمين معلوف: الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء والعولمة)، ص10.

[2] – المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

ثانيا: شرعية البدون والبدون شرعية

تناول الكتاب الواقع المعاصر بكل خباياه المستورة ودهاليزه المظلمة، مشيرين إلى تعسفية الوضع على بعض الطبقات المسلط عليها سياط القهر والإذلال، ولعل من أبرز القضايا التي طرحها السرد في الساحة الأدبية بطريقة جريئة جدا قضية الانقسام العرقي التي تكسر التكتل المجتمعي إلى طبقات تطفو الواحدة فيها فوق الأخرى .

«شيء معقد ما فهمته في بلاد أبي؛ كل طبقة اجتماعية تبحث عن طبقة أدنى تمتطيها وان اضطرت لخلقها، تعلو فوق أكتافها، تحتقرها وتخفف بواسطتها من الضغط الذي تسببه الطبقة الأعلى فوق أكتافها هي الأخرى»[1].

تعد أزمة "البدون" سليلة هذه النظرة الرجعية الطبقية التي تهمش بعض أبناء المجتمع وتدفع به نحو الهامش معتبرة إياهم طبقة دون باقي طبقاته وذلك بمنعهم الجنسية، فالجنسية

«هي رباط قانوني بين الفرد والدولة. توفر للناس الشعور بالهوية، ولكن الأهم من ذلك هو أنها تمكنهم من ممارسة طائفة واسعة من الحقوق. لذلك، يمكن أن يكون انعدام الجنسية ضارا، وفي بعض الحالات مدمرا لحياة الأفراد المعنيين»[2].

مشكلة "البدون" هي مشكلة سياسية اقتصادية اجتماعية شائكة وملحة، و"البدون" هم أولائك الذين لا يملكون جنسية "مختصر لبدون جنسية" –وهم فئة متفشية لكنها استفحلت وتشابكت خيوطها في الرقعة الكويتية– فزمرة كبيرة منهم من البدو الرحل لأسباب معينة لم يتم تجنيسهم وبعضهم الآخر نزح إلى الكويت من بلدان أخرى وأقاموا بطريقة غير شرعية هناك إثر البحبوحة

[1]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص279.

[2]– أنطونيو غوتيريس: الحد من وخفض حالات انعدام الجنسية (اتفاقية عام 1961بشأن خفض حالات انعدام الجنسية)، المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، سويسرا، سبتمبر2010، ص1.

الاقتصادية التي عرفتها البلاد بداية من عام 1910؛ بارتفاع محصول اللؤلؤ ونشاط الحركة التجارية إضافة لاكتشاف آبار النفط 1946[1].

«مستغلين عدم وجود ضوابط لدخول الكويت والاستثناء الممنوح لأصحاب العشائر من قانون الإقامة المطبق في أواخر الخمسينات، فأخفى العديد منهم هوياتهم مدعمين انتمائهم إلى فئة عديمي الجنسية طمعا في الحصول على الجنسية الكويتية وامتيازاتها فتنامت هذه الفئة في فترة وجيزة بشكل كبير»[2]

تسبب ذلك في ضغط متزايد وغير معهود، زاد من استنفار الدولة خوفا من المساس باستقرارها ما جعلهم في وضع حساس دفع بهم نحو الحضيض.

رواية السنعوسي لم تتفرد بتناول هذه القضية فقد سبقتها وعاصرتها ولحقتها عدة خطابات تناولت الأيقونة نفسها بالفحص والتشريح، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:"سلالم النهار"فوزية سالم بوشويش، "زاجل"خالد عادل النصر الله، "أصفاد من ورق" يوسف هداي ميس، "ذكريات ضالة" عبد الله البصيص، و"في حضرة العنقاء والخل الوفي" إسماعيل فهد إسماعيل؛ والتي عدت وثيقة كاملة بحيث لاحقت منعطفات الأزمة عبر خطين متوازيين هما اللغط الحكومي والواقع المنتكس لأبنائها غير المرغوب فيهم، إضافة لرواية "ارتطام لم يسمع له دوي" بثينة العيسى، "صهد" ناصر الظفيري لتعبر مجتمعة عن قمة المأساة التي تعاني منها هذه الفئة في ظل عنجهية أرض تنجب وتئد.

«تعرفت من خلال غسان على نوع جديد وفريد من البشر. فصيلة جديدة نادرة . اكتشفت أناسا أغرب من قبائل الأمازون، أو القبائل الإفريقية التي يتم اكتشافها بين

---

[1]- حمد عبد المحسن الحمد: الكويت والزلفي(هجرات وعلاقات وأسر)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص34-35.

[2]- حمدان مجزع الشمري ووصايف مهدي الشمري: البدون في الكويت قضية لم تحسم بعد، إدارة مجلس الدراسات والبحوث (مجلس الامة الكويتي)، أفريل 2014، ص5.

حين وآخر. أناس ينتمون إلى مكان لا ينتمون إليه..أو..أناس لا ينتمون إلى مكان ينتمون إليه»[1].

فهم فئة معترف بوجودها المعقود بمعانات الرفض والتهميش، رغم اعتراف الدولة بأن بعضهم من العشائر البدوية الكويتية، لكنهم يصنفون كـ"غير محددي الجنسية"؛ أي أنهم أصحاب جنسيات معلقة لا ينتمون قانونيا لأي دولة فحياتهم أصبحت معلقة في الفراغ. أو كـ"مقيمين غير شرعيين" فأي تشريع هذا الذي لفظهم وأي تشريع يعترف بهم .

حرموا من أدنى حقوق الإنسانية، بحيث منعوا توثيق عقود زواجهم محاولة بذلك تخفيض نسبتهم والضغط عليهم على نحو ما لبتر سلالتهم، لألا يشكلوا عائقا وعبئا أكبر على الدولة، ليزيد ذلك من عمق مآسيهم ومعـاناتهم. ويتسع مجال المحرمات ليشمل قرارات منع تحرير شهادات الميلاد وشهادات الوفيات والطلاق، ولم يسمح لبعضهم بالعودة إلى مناصبهم الحكومية بعد الغزو، بل لم يسمح لهم بدخول البلاد بعد فرارهم لدولهم الفعلية هربا من أن تطالهم ويلات الحرب[2]. حرموا من حق التجوال عبر أصقاع الأرض، لتكون الكويت سجنهم البئيس فقد منعهم القانون من اقتناء جوازات السفر

«سيدي! قلت لأمي[...]إن هناك ما يمنعك من السفر[...]نعم لست أستطيع السفر. فأنا لست كويتيا[...]ما العلاقة بين أن يكون الإنسان غير كويتي وعدم قدرته على السفر![...]من أين أنت إذن؟[...]بدون[...]هل البدون ضمن دول الـ G.C.C؟. ضحك ضحكة تشبه البكاء»[3].

لم يكن ذلك السبب إلا عدم تمكنه من اقتناء جواز سفر، الذي يحقق له التجوال خارج الحدود فالسفر لا يتحقق إلا به ولا يحق للبدون حصولهم عليه لعدم امتلاكهم أي وثيقة تثبت وجودهم

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص192.

[2]- حمدان مجزع الشمري ووصايف مهدي الشمري: البدون في الكويت قضية لم تحسم بعد، ص6-7.

[3]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص191-192.

الفعلي، لتتضاعف مأساته، فلا هو يستطيع العيش في الكويت هانئا، ولا في مقدوره أن يتصل ببلد آخر يضمن له ذلك.

وبقرار حكومي لعام 1986 تم تجريدهم من مجمل حقوقهم خصوصا الحق في التعليم المجاني والرعاية الصحية[1]، فإن كان الفقر المدقع لفئة موسعة منهم تمنعهم من ارتياد المدارس الخاصة والتداوي مدفوع الأجر فإلى أين الملاذ، لذا فقد عانى الكثير منهم من ويلات الجهل والأمراض حيث تصرح نادية حسين إحدى الناشطات في الدفاع عن حقوق البدون متحدثة عن حالتهم الأسرية

«ففي أسرة مكونة من أربع فتيات وصبيين، سوف تؤثر الأسرة دفع الأموال كي تحرص على التحاق الصبيين بالمدرسة، فيما تضطر فتيات الأسرة إلى التناوب على الالتحاق بالمدرسة كل سنة[...]ما لم تختر إحداهن الزواج، فسوف تصبح الفتيات ضحايا حبيسات المنازل.(ومع ذلك) فتختار الكثيرات من نساء البدون عدم الزواج أملا في عدم تكرار الدورة ذاتها مع أطفالهن مستقبلا»[2]

(ليست النساء فقط بل والرجال أيضا اتخذوا ذات الموقف؛ حيث أعرض الكثير منهم عن بناء أسرة خوفا من توريث دونيته لخلفه) فذلك الواقع المشبع بأنواع الأسى والألم والحرمان جعلهم زاهدين في كل شيء؛ فزواج "البدون" يعني المزيد من "البدون"، ليصبح أشبه بورم خبيث مسلم بتوارثه جيلا عن جيل دون أن يخطأ أو يتجاوز

«لما لم تتزوج إلى الآن؟[...]لا أريد أن أنجب أبناء يلعنونني بعد موتي يا عيسى[...]ما الذي يمكنني توريثه لأبنائي سوى صفة ظلت لصيقة بي طيلة حياتي[...]البدون يا عيسى، جينة مشوهة. تتعطل بعض الجينات ولا تصل إلى الأبناء، أو تتجاوزهم لتظهر

[1]- حمدان مجزع الشمري ووصايف مهدي الشمري: البدون في الكويت قضية لم تحسم بعد، ص7.
[2]- منظمة العفو الدولية: كويتيون بدون، سبتمبر 2013، ص3.

في الأجيال اللاحقة من ذريتهم، إلا هذه الجينة الخبيثة، فإنها لا تخطئ أبدا. تنتقل من جيل إلى آخر محطمة آمال حامليها»[1].

وبسبب الخيبات التي يمر بها الواحد منهم من رفض المجتمع وإنكاره واشمئزازه منه ومن نسله لترفس مشاعرهم وتسحق آمالهم تحت أقدام الأعراف الصدئة والقوانين المتعسفة«تقدم غسان لخطبة عمتي هند[...]خولة تتفهم رفض جدتي لغسان، فهي لا تريد لأحفادها أن يكونوا"بدون" مثل أبيهم، يرفضهم الناس والقانون»[2] ليزيد ذلك من وطأة الخيبة والقهر والتقهقر النفسي.

ارتفعت حالات الطلاق لذات الفئة بسبب القوانين اللاعقلانية التي تصدرها الدولة بين الحين والآخر، ضاربة عرض الحائط حقوق التماسك الأسري، منددة بشكل أو بآخر بنقض ميثاق الزوجية المقدس مرسخة الذهنية العرقية بين طبقات المجتمع لتدفع به نحو التهاوي، فقانون الجنسية يدلي ضمنيا بما مؤداه أحقية حصول أبناء الكويتيات المتزوجات من غير الكويتيين من بينهم أولائك الغير محددي الجنسية (بدون) بشرط أن يكن مطلقات أو أرامل، حصول أبنائهن على الجنسية الكويتية[3]، لذلك فقد ضحى العديد من "البدون" بزواجهم من كويتيات ذوات جنسية فداء من أجل حصول أبنائهم على الجنسية وفق ما يقتضيه القانون أعلاه .

ازداد وضع شريحة "البدون" تدهورا بعد التكالب العراقي، ولعل ما يجب الوقوف عنده والإقرار به أن الدولة حين تجمع تحت رايتها بنيات عرقية متعددة للكثير منها جنسية أولى، ذلك قد يخل باستقرارها السياسي في حالة أي أزمة يمكن أن تمس البلاد بشكل مباشر، فيجعلها في وضع حرج خاصة —كما سلف الذكر– أن قسم من "البدون" أثناء أزمة الخليج قد فرو من البلاد لجوءا إلى بلدانهم الأولى، تاركين مناصبهم الحكومية شاغرة، لذلك لم ترغب الدولة في أن تبني أسسها على أعمدة مهتزة مستعدة للانحلال عند أخف ارتطام، فالبدون ممن لهم جنسيات أولى عراقية عند نشوب الحرب، لابد من أن الولاء في دواخلهم لهوياتهم الأولى ولوطنهم البديل قد وصلت لأوج صراعها.

[1]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص227-228.

[2]– المصدر نفسه: ص289.

[3]– هذا ما تقره المادة الخامسة من قانون الجنسية الكويتي رقم 15لسنة 1959، ص2 .

فبمجرد انتهاء الأزمة قامت الحكومة بإقالة قسم كبير منهم من مناصبهم الحكومية التي يتقلدونها إذ تم تسريحهم من الجيش«ولكنك عسكري![...]كنت..في يوم ما»[1]رغم أن نسبتهم فيه قبل الغزو تقارب 80% من إجمالي المجندين[2]، غير أن ذلك لم يكن عائقا للتخلي عن خدماتهم رغم التضحيات التي قدموها باستماتة فداء لوطنهم أو ما اعتقدوا أنه كذلك«إننا كويتيون وقت الضرورة وحسب .. ويصبح الإنسان منا كويتيا وقت الأزمات..ثم سرعان ما يعود للتصنيفات البغيضة ما إن تهدأ الأمور»[3].

ما الذي يشفع لهم، فولادة أجدادهم وآبائهم على هذه الأرض لا يكفي، وميلادهم فيها وضرب جذورهم في ترابها لا يكفي، وأن لا يعرفوا غيرها أرضا أيضا لا يكفي، مع أن أكثر من مائة ألف من "البدون" يقطنون في الكويت لأغلبهم جذور ضاربة في عمق التاريخ، إذ ينحدرون من عائلات سبق وأن استقرت في هذا البلد من سنين خلت[4].

«ذلك الحزن الذي على وجهه بسبب صفة لصيقة به لم يستطع التخلص منها. هو بدون[...]هو بلا جنسية، خلق هكذا. لو كان سمكة سردين منشأها المحيط الأطلسي لأصبح سمكة أطلسية. لو كان طائرا في إحدى غابات الأمازون لأصبح طائرا أمازونيا. أما أن يولد أبواه في الكويت، ويولد هو الآخر حيث ولدا، لا يعرف أرضا سواها يعمل في سلكها العسكري، ويدافع عنها زمن الاحتلال..فهو..بدون!»[5]

ذلك على الرغم من أن اتفاقيات حقوق الإنسان تقر بأن من حق أي طفل الحصول على الجنسية في مسقط رأسه أو وراثة جنسية أحد والديه ما لم يكونا غير محددي الجنسية، وهو ما تقره اتفاقية1961الصادرة عن المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين«على الدول أن تمنح

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص192.

[2]- حمدان مجزع الشمري ووصايف مهدي الشمري: البدون في الكويت قضية لم تحسم بعد، ص4/نقلا عن: مظفر العوضي: مشكلة غير محددي الجنسية، طبيعة التعامل الرسمي والخارجي مجلس الأمة، نوفمبر، 1996، ص32.

[3]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص277.

[4]- منظمة العفو الدولية: كويتيون بدون، ص2.

[5]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص192-193.

جنسيتها للأطفال الذين يمكن أن يتحولوا إلى عديمي جنسية وأن يكون لها روابط معهم إما عن طريق الولادة على أراضيها أو النسب إلى أحد الوالدين»[1].

وما يزيد من مأساتهم أن نفس هذا القانون الذي نبذهم للعراء النسبي يحتضن أبناء العلاقات غير الشرعية ليمنحوا الجنسية في سن البلوغ[2]، فاللقط بالنسبة لهم نعمة وحظ أخطئهم.

«ينظر أبناء الطبقة الدنيا إلى نظام الحكم القائم بل إلى المجتمع[...]باعتباره أداة لحفظ امتيازات الطبقة العليا، و بالتالي تسودهم مشاعر السخط والحنق إزاء هذه الأوضاع وتتضاءل في نفوسهم قيم الولاء لمجتمع يعتبرهم مجرد عاتق يرتقي عليه غيرهم الأمر الذي يجعل فكرة الهوية والانتماء إلى الأمة والمجتمع باهتة في وجدانهم»[3]

فكثيرا ما يشعر الفرد منهم باللاجدوى من حياته، ما يؤدي به في النهاية للانغلاق على ذاته كما هو باد على شخصية كغسان، فيقل تفاعلها في المجتمع، أو التمرد على الظروف القاسية وانتخاب طريق التطرف، اقتصاصا من واقع نكل بهم، أو قد يعدمون الحياة للخلاص من دائرة التيه.

ولعل من الضرورة بما كان لفض هذه التعددية الطبقية واقتلاع الذهنية الإثنية وتقليص التفاوتات ومحاولة إيجاد استقرار اجتماعي، سن لفتات من طرف الدولة والمؤسسة الحكومية ذاتها، وغضها الطرف عن تعددية الأجناس العرقية ومعاملة أبنائها على حد سواء دون انحياز أو تمييز عنصري ولعل ذلك ما يمحق التفكير الإمتطائي الطبقي على حد تعبير صاحب "البامبو"، ويفتت الإثنية في اللاشعور الجمعي، أيضا لربما يساعد في بلسمة جراح الانقسامات والتمزقات الأسرية، فأسرة متماسكة يعني مجتمع أرقى .

[1]- أنطونيو غوتيريس: الحد من وخفض حالات انعدام الجنسية (اتفاقية عام 1961بشأن خفض حالات انعدام الجنسية)، ص3.

[2]- هذا ما تقره المادة الثالثة من قانون الجنسية الكويتي رقم 15 لسنة 1959، ص1.

[3]- أحمد مُحَّد وهبان: الهوية العربية في ظل العولمة(إطلالة على حال الهوية في مصر والعالم العربي)، الجمعية السعودية للعلوم السياسية، جامعة الملك سعود، السعودية، د.ط، د.ت، ص15.

وبذلك فقد عبرت الرواية عن وجهين متناقضين لأزمة المواطنة والجنسية، الوجه الأول الذي جسده بطل الرواية (هوزيه مندوزا/عيسى الطاروف) ذو الانتماءات والأسماء المتعددة، الذي ولد لزواج مختلط، لتصبح مأساته مضاعفة، برفض أسرته له.

أما الوجه الثاني الذي جسده غسان رفيق والده الحميم، الذي كان يعاني من الرفض القانوني؛ بحيث عد من فئة البدون، الذين تمنعت الدولة عن منحهم الجنسية، ليقاسي عذابا الغربة والضياع في أرض الوطن الضرير.

المبحث الثالث: هوية الذات والغيرية

تنطلق الدراسة من تحديد العلاقات المتبادلة بين الذات والغيرية من منطلق الذات الساردة، التي حققت مركزيتها من خلال الخطاب المسرود الذاتي، فالراوي(هوزيه/عيسى) يعبر عن أناه من خلال الخطاب الصادر عن ذاته، حيث يمارس سلطة الحكي معتمدا البوح الداخلي، المعبر عن عوالمه النفسية المشبعة بالألم والمرارة. فالذات الحكاءة مشاركة في الأحداث تجسد صراعها مع آخرها، في منظومة المواقف الانفعالية، لتشكل وإياه مدارا للسرد. تعرف الأنا أو الذات على أنها«عبارة عن منظومة سيكولوجية اجتماعية[...]يتبلور من خلال الواقع المحيط بها فيؤثر فيها»[1].

فالغير هو الطرف الآخر الخارج عن نطاق الذات وعن شعورها الوجداني، لكنه يتحكم بذلك الشعور على نحو ما، و«تعرف صورة الآخر بأنها عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد-أو جماعة-إلى الآخرين»[2] فلا معنى لوجود أحدهما من دون الآخر؛ ذلك أنه «ثمة تلازم بين مفهوم "صورة الذات"ومفهوم "صورة الآخر" واستخدام أيا منهما يستدعي-تلقائيا- حضور الآخر»[3] فلا يمكن للذات أن تكون ذاتا إلا بمواجهة طرف آخر، فمن خلاله تأخذ ماهيتها كذات وتتخذ كيانها، والآخر لا يتحقق إلا بوجود ذات تنظر إليه وتهيكله من زاوية نظرها، تتحرك في فضاءه وتتصارع معه، حيث ينبع كيانه من نظرة الأنا له فتتموضع صفاته آخذة شكلها على مستوى السرد «إن"الأنا"يتجلى وجودها في مرايا غيرها»[4] وكذا الآخر بالمثل.

---

[1]- عمرو عبد العلي علام: الأنا والآخر(الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، دار العلوم، القاهرة، ط1 2005، ص10.

[2]- المرجع نفسه: ص12.

[3]- المرجع نفسه: ص11.

[4]- المرجع نفسه: ص12.

منطق السرد في هذه الرواية يفرض وجود تقابل بين الذات المتمركزة سرديا والآخر المتعدد، في صراع إشكالي تراوح بين القبول والرفض

- الآخر الشوفيني المنغلق على ذاته، طارد للأنا؛ يجسده المجتمع الكويتي(استاتيكي)بخزرته الدونية التي«تنطلق من نظرة واحدة إقصائية تحتقر كل ما يختلف عنها»[1]وترفض التعددية وتهمش المختلف، في مقابل النزعة البرجية المتعالية في تمركزها الإثني المتعصب«يبدون ودودين فيما بينهم. الوجوه باسمة على الدوام شريطة أن تكون الابتسامة داخل محيطهم»[2].
- الآخر المنفتح على ذاته وإثنياته وتنوعه والمتقبل للأنا؛ يجسده المجتمع الفلبيني الكزموبوليتاري في تعدديته وزخمه العرقي وعدم تجانسه، ما سهل على شخصية ك"هوزيه"مضطلعة(بتركيبته المشيجة) أن تندمج وبسهولة دون روادع عاطفية أو نفور، في هذا المحل.

«تتحول الفتيات هناك إلى مناديل ورقية، يتمخط بها الرجال الغرباء..يرمونها أرضا.. يرحلون..ثم تنبت في تلك المناديل كائنات مجهولة الآباء نعرف بعضهم بالشكل أحيانا»[3]التهجين لم يكن صفة استثنائية مقصورة عليه، بل تعدد أعضاء هذه الزمرة من الفلبينيين، وأصبح وجودها دارج هناك لذلك كان أمر قبوله بين عشيرته أمرا هينا يسيرا، ضف إلى ذلك أن ملامحه الفلبينية الصارخة ساعدته على الاندماج بسهولة بينهم«كيف تبدو ملامح ابن الفلبينية؟سألت جدتي غسان في ذلك اللقاء. أجابها: فلبينية»[4].

وما يجمع كلا الطرفين هي الذات التي تشكل جزء منهما معا ونقطة تجمع، يمارسان عليها الجذب الثنائي فتتحول الهوية بفعل هذه الميزة إلى هوية قاتلة(على حد تعبير أمين معلوف) تنخر الذات من الداخل وتشظيها، ذلك لما«يصطرع في داخلها من أفكار متناقضة ومشاعر متباينة»[5]مفادها الولاء المزدوج، والجلد الذي يفعله الرفض والتهميش والتحقير«كنت كمن يقف في منتصف جسر بين مدينتين»[6].

---

[1] – ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب(سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط مارس2013، ص9.

[2] – سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص333.

[3] – المصدر نفسه: ص18.

[4] – المصدر نفسه: ص211.

[5] – ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)، ص29.

[6] – سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص144.

حاولت الأنا أن تهيكل ذاتها من وفاق هويات متعددة، انتقت منها ما يحقق لها نوعا من التوافق الداخلي، فكانت ميرلا(ابنة خالته) مثله في التمرد والعصيان«حاولت أمي أن تثنيني عن قراري. توسلت. حذرت وهددت. أرسلت لي ألبيرتو مرارا، لكنني كنت قد اتخذت من ميرلا مثالا في الإصرار والعناد»[1].في حين بدأت الأنا بإدراك ماهيتها في مرحلة مراهقتها؛ تلك المرحلة التي تتضح فيها ملامح هوية الفرد في شكلها الأولي

ف«الوظيفة البنائية للأنا السوية هو احتفاظها بالشعور بـ[...]هوية الأنا أو الهوية السيكولوجية. وهذه حالة داخلية تتضمن أربعة جوانب رئيسية هي:

1- الفردية[...]تعني الإدراك الواعي بالاستقلالية والفردية وتحقيق هوية مستقلة واضحة.

2- التكامل وتوفيق المتناقصات: أي الإحساس بالكمال الداخلي[...]فالطفل النامي يكون صورة مختلفة للذات مثل[...]الطاعة والعصيان[...]ضآلة الجسم والعجز عن الاستقلال في الصغر مقابل كبر الجسم والقدرة على الاعتماد على النفس في الكبر»[2]

وهي أهم المنازل الأربعة المشكلة للأنا في مراحل نضجها واستقلالها الذاتي في نظرية أريكسون"علم نفس الأنا"«لأول مرة أشعر بأنني وحيد، وبأنني أملك مصيري بيدي. شعور بالفزع انتابني حين شعرت بأن لا ملجأ إلي..سواي»[3]فسعت لتحقيق ذاتها بخروجها عن إطار الآخر الذي يضطهدها ويقهرها(الجد مندوزا) ويبرح تشكل هويتها، فتحاول الانعتاق إلى عالم أرحب، وشكل سيعيها للبحث عن وظيفة تؤمنها بوابة التحرر من القهر والتعسف البطريكي الذي ذاقت ذرعا به. «"سأبحث عن عمل" كنت قد نويت في اتخاذي لهذا القرار أن أحرر نفسي من ذل مندوزا وحسب»[4]ففضاء آخرها(الفلبيني) لم يعد يستوعبها في تطلعاتها، فبدأت رحلة البحث عن الذات في انتظار إعلان عودتها إلى الفردوس الذي نبذت منه في يوم ما«وعدا كان قد قطعه والدي

[1]- المصدر السابق: ص131.

[2]- مُحَمّد السيد عبد الرحمن: نظريات الشخصية، دار قبى، القاهرة، دط، 1998، ص282-283.

[3]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص131.

[4]- المصدر نفسه: ص131.

لوالدتي بأن يعيدني إلى حيث يجب أن أكون، إلى الوطن الذي أنجبه وينتمي إليه، لأنتمي إليه أنا أيضا[...]ولأنعم برغد العيش، وأحيا بسلام طيلة العمر»[1].

كانت الذات منفتحة على الآخر في معتقداته وتصرفاته؛ فكثيرا ما كانت تبحث عن تموقع لها داخله، شيء يمكن أن تستكين إليه؛ ولعل هذا ما يفسر تشرذمها بين أكثر من ديانة، وما يجسده بحثه عن ذاته في الآخر الكويتي الوافد إلى الفلبين حيث كان يعمل«في البدء كنت أميز السياح العرب، أما فيما بعد، فقد أصبحت أميز الكويتيين من بينهم. "لأنني واحد منهم" كنت أحاول أن أقنع نفسي»[2].

وما يضاف إليه محاولته التشبث بأسرته رغم الرفض في محاولة لإثبات الذات، فهو الساعي بروح اليائس للبحث عن طوافته في شتاته«لا تسترجع الأنا إلا في ضوء ما أدركته في "الآخر"وذلك في سياق الفعل الحواري المتوتر من معرفته بالآخر التي تغدو معرفة بالأنا»[3] إن معرفة الذات بهذا المفهوم تستدعي بشكل حتمي معرفة الآخر على النحو الذي يجلي من خلاله ملامحها الجوانية خاصة إذا كان ذلك الآخر(الكويتي) يشكل جزء من جذورها التي بترت منه في زمن ما، وهي اليوم تسعى للاتصال به لتحقيق ذاتها وافتكاك الاعتراف.

دفع به التوق إلى بلاد أبيه إلى شد الرحال إليها بحثا عن الجذور والذات والاعتراف، وهو توق عززته أمه بحكاياتها عن فردوسه المسلوب، الذي يشكل رجوعه إليه نتيجة حتمية بسبب انتماءه له بروابط النسب، لكنه عندما يصطدم بجحيم الرفض، ينحطم الأمل والحلم وصورة الجنة في داخله فيرسوا لإدراك مفاده أن"النحن"الذي لطالما اعتقد أن أناه جزء منه ليس سوى آخر مناف لها، في ممارساته للقوة الطاردة التي أجبرته على التراجع «لديهم؟! لماذا لديهم بدلا من لدينا[...]سأتركها كما هي..لديهم»[4]فتتحول صيغة من"النحن"إلى صيغة "الهم"بحيث يدرك في نهاية المطاف أنه غريب عنه.

لذلك يسعى لإيجاد منفذ للخروج من دوامة النزاع الداخلي لاستعادة صيغة "النحن" بدلا من "الهم"التي عمد المجتمع والأسرة على ترسيخها«لا أريد أن أفقد توازني. لا أريد أن أخسرني أو

---

[1]- المصدر السابق: ص18.

[2]- المصدر نفسه: ص151.

[3]- عمرو عبد العلي علام: الأنا والآخر(الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ص12.

[4]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص339.

أكسبني»[1] فإما أن يصل إلى التوازن أو تتقهقر ذاته تحت وطأة الولاء والخيانة، لينسحب نحو الداخل، فيتعزز شعوره بالاغتراب.

الذات في انفتاحها على آخرها(الكويتي) ومحاولة الاندماج وتركيبته الاجتماعية، تصطدم بتقوقع الآخر ونبذه وصده لها، فتلتبس مشاعره نحو آخره«للكويت وجوه عدة هي أبي الذي أحببت..عائلتي التي تتناقض مشاعري اتجاهها»[2] جدته التي تحبه لكنها تخشى المجتمع ببقائه، عمته هند التي وقعت بسببه بين مطبين؛ ما تنادي به من مبادئ حول حقوق الإنسان والأقليات واسم عائلتها«مصداقيتي أمام الناس على المحك.. واسمي كذلك»[3]أخته خولة التي تحبه لكنها تعامله كغريب

«نزلت درجات السلم بهدوء، وما إن وطئت قدماي أرض الطابق الأرضي حتى انتبهت خولة لوجودي، صرخت. حملت وسادة[...]تحجب بها رأسها[...] أدرت لها ظهري وكأنني قد اقتحمت غرفة نومها في حين كانت تغير ثيابها»[4]

عمته نورية في رفضها القاطع له«نورية التي تكرهني وترفض الاعتراف بي»[5].

وبذلك حاولت الذات اختراق الذهنيات المتحجرة، كخطوة للاحتفاء ببعض الاعتراف، فأخذ يتودد لجدته التي قبلت بوجوده في ملحق حرملك الطاروف الفاره على مضض«لو كان تدليك ساقيها يقربني إليها لقضيت عمري كله في هذا العمل»[6]وهو الذي كان يكره تدليك"الجد مندوزا" مندوزا" وخرج عن طوعه لذات السبب«كنت على استعداد للقيام بالأعمال نفسها التي يكلفني بها شريطة أن تكون في مكان آخر، مقابل أجر أتقاضاه»[7] لقد اكتفى أن يكون أجره من جدته شيئا من القبول والاعتراف

[1]- المصدر السابق: ص396.

[2]- المصدر نفسه: ص324.

[3]- المصدر نفسه: ص223.

[4]- المصدر نفسه: ص256.

[5]- المصدر نفسه: ص324.

[6]- المصدر نفسه: ص250.

[7]- المصدر نفسه: ص131.

«أصبحت جدتي تتقبلني أكثر مما مضى. يبدو أن قبولي لديها قد بدأ من الأسفل، من قدميها، مرورا بساقيها، وصولا إلى ركبتيها[...]وعما قريب سأتجاوز ركبتيها صعودا إلى قلبها. ليتني أستطيع تدليكه، لعله يلين»[1]

كان للشخصية رغبة كبيرة في التمسك بجذورها والامتداد بها هناك، لكن قنوطه من اعتراف آخره به يدفعه بقناعة اليائس للاعتراف بذاته «تمردي على نفسي:"أنا عيسى راشد الطاروف..أنا عيسى راشد الطاروف".هل أنا بحاجة لاعترافكم بي بعد أن اعترفت، أنا بنفسي؟»[2] إنه اليأس الذي أدى بالذات إلى رد فعل دفاعي، حتى لا تتقهقر تحت سياط جلد النفي العاطفي، أو تعيش في دائرة الاغتراب المغلق، فالاعتراف الذي يشكل موضوع القيمة ما كان له أن يتأسس ذاتيا(الشخصية فيما بعد تعاني من عدم الثبات الذي ولو وجدت في اعترافها بنفسها نوعا من الهدوء والاستقرار لما حصل) ومنه فاعتراف الذات بذاتها لا يتأسس إلا باعتراف الآخر بها وباستيعابه لها بتعقيداتها

«يلعب المجتمع دورا بارزا في التأجيل أو التعجيل بتحقيق الهوية[...]حيث يفترض أن الوالدين ربما يدعمون عمليات نمو الهوية من خلال إمدادهم لأطفالهم بالأمان العاطفي(التقبل والتعاطف والرفقه)، وذلك من خلال المظاهر السلوكية التي توضح هذه العمليات. وفي المقابل فإن العلاقة بين المراهق ووالديه التي تتصف بالفقر أو الضعف العاطفي أو تتصف بالرفض وعدم التواصل[...]ربما لا تحقق الأمان العاطفي الذي يحتاجه المراهق لاكتشاف هويته»[3]

وما إصراره على المكوث في الكويت إلا لوجـود من يعترف به من أفراد أسرته، وإن كان قبولا باهتا؛ حيث لامس بعض الأمل في الانتهاء لاقتناء موضوع قيمته، لكن عندما لم يتبق له شيء غادر أرضه جارا أذيال الخيبة إلى بلاد أمه، تلك التي تتقبل اختلافه«حاولت أن أختزل وطني في أشخاص أحبهم فيه.لكن الوطن في داخلهم خذلني»[4].

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص254.

[2]- المصدر نفسه: ص290.

[3]- مُحَمَّد السيد عبد الرحمن: نظريات الشخصية، ص290.

[4]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص304.

الرفض والإذلال يؤدي بالذات لإعلان انهزامها أمام آخرها واتخاذ مسافة فارقة بينه وبينها

«"قررت الرحيل". لم تتمسك خولة، رغم حزنها، بوجودي[...]"سأفتقدك يا أخي" [...]أول مرة تناديني خولة بهذه الصفة، وقبل ذلك بيوم، أحاطتني ماما غنيمة بذراعيها لأول مرة وقبلتني. لو كنت أعلم بذلك لتركت بيت الطاروف منذ زمن»[1]

تعترف الذات في دائرة البوح الجواني بخوفها وعجزها وتراجعها تحت سياط القهر، معبرة عن قلق وجودي، يعززه تشرذمها وإحساسها بالاغتراب مهددا إياها في هشاشتها«نظرت إلى نفسي بين كل تلك الخطوط. تملكني الذعر. لا أريد أن أفجع بمصير يشبه مصير غسان. لا أريد أن أنتقم من عائلتي وإن رفضت الاعتراف بي»[2]. شكلت "إينانغ تشولينغ"(السلحفاة) دائرة تنفيس اتخذتها الشخصية لتخفف بواسطتها من الضغط المصطرع داخلها«فقدت أعصابي[...]ركلت سلحفاتي»[3]

«شيء معقد ما فهمته في بلاد أبي؛ كل طبقة اجتماعية تبحث عن طبقة أدنى تمتطيها وان اضطرت لخلقها، تعلو فوق أكتافها، تحتقرها وتخفف بواسطتها من الضغط الذي تسببه الطبقة الأعلى فوق أكتافها هي الأخرى.

بين هذه الطبقات كنت أبحث عني..نظرت أسفل قدمي..لاشيء سوى الأرض.. الضغط فوق كتفي قادني إلى مكاني بين الناس في..بلاد أبي.

في مكان قريب كانت سلحفاتي تمشي ببطء. راودتني فكرة مجنونة، ولكن، خشيت أن تتهشم صدفتها تحت قدمي إن أنا ارتكبت الفعل»[4].

---

[1]- المصدر السابق: ص293-295.

[2]- المصدر نفسه: ص290.

[3]- المصدر نفسه: ص287.

[4]- المصدر نفسه: ص279.

ولعل ما يصاحب تكسر المجتمعات طفو الواحدة فوق الأخرى، لكن الذات تجد نفسها في أسفل الهرم تحت ضيم الطبقات الأعلى، تحملها على أكتافها تتحمل أوزارها وتجلد لذنوبها(ميلاده من زواج مختلط، من خطيئة اجتماعية دافعها اشتداد النوازع الغريزية التي وجدت في ورقة زواج عرفي بوابة للإشباع، أسفرت عن طفل بملامح الخطيئة)، كان شكله عائقا أمام تحقيق ذاته؛ بحيث عسر عليه الاندماج في آخره وعرقل التواصل معه، ما زاد من تعميق أزمته وعزز شعوره بضياع«ما إن يركبون سيارة الجيب[...]حتى أنظر إلى نفسي في مقدمة المركب، حاملا القصبة بين يدي، أنظر لها، متمنيا أن تستحيل عصا سحرية تحيلني واحدا منهم»[1].

كل هذه التعقيدات التي عايشها في أرض أبيه دفعته للعودة إلى الفضاء الأول، الذي يمنحه بعض الفرصة للتعبير عن أناه والمشاركة في المجتمع دون ميز طبقي، لتحقيق وصال مع ذاته بدل الفصام المجتمعي الذي أعجزه عن الانخراط في الحياة الاجتماعية، إلا في بوتقة ضيقة جدا؛ حيث حتى في الكويت الشخصية لا تنخرط كثيرا مع الكويتيين بل تتوافق مع جماعات فلبينية«وجودي في الكويت جعلني أتعرف على الفلبينيين بشكل أوضح»[2] ذلك يدل على حالة الانعزال التي تمر بها والتي يعززها المجتمع الرافض لشكله

« وقفت في أحد طوابير الـG.C.C[...] دسست كفي في جيب البنطلون، وقبل أن أخرج منه الجواز صرخ بي الرجل[...]أشار بيده نحو الطابور الآخر[...]"رفض وجهي قبل أن يرى جواز سفري!"»[3]

وقد رأى في ابنة خالته تمثلا وتماسا لذاته المنشطرة بين عالمين، فاستكن إلى وضعها الشبيه بوضعه«الفتاة الـMestiza والشاب الـArabo»[4] وبزواجه منها استعاد أجزاء من هويته المسلوبة، وهي بالمثل«إن وقوع المراهق في الحب قد لا يكون أكثر من محاولة لاكتشاف هوية الذات باستخدام شخص آخر»[5]محطمان قواعد الشرع الكاثوليكي التي تحرم زواج الأقارب. إذا فقد استطاع الوصول إلى هذا التوافق بعد ولادة ثانية عسيرة، استطاع من خلالها أن يكون فكرة

---

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص151.

[2]- المصدر نفسه: ص360.

[3]- المصدر نفسه: ص185-186.

[4]- المصدر نفسه: ص110.

[5]- جابر عبد الحميد جابر: نظريات الشخصية(البناء-الديناميات-النمو-طرق البحث-التقويم)، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، 1990 ص181.

عن هويته واستبطان ذاته بعد وعيه بآخره«المرء لا يدرك هويته إلا في لحظة مأزومة»[1] رغم الخيبات التي تكبدها بعد صراع مرير موضوعه الاعتراف، ليركن في نهاية المطاف إلى شيء من التوازن النفسي«بهذه النتيجة أنا..متعادل»[2].

[1]- ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)، ص13.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص396.

الفصل الثاني:

حيثيات الأزمة

المبحث الأول: الهوية بين التشكل والتشتت

المبحث الثاني: الذات ومأزق الاغتراب

المبحث الثالث: صراع الهويات

المبحث الأول: الهوية بين التشكل والتشتت

كثيرا ما يمر الفرد في حياته وعلاقاته بظروف صعبة تعكر صفوه، ويشعر معها بالعجز وعدم قدرة السيطرة على مجرياتها، لكن يتدهور الأمر ويخرج عن سويته إذا ما تجاوز ذات الموقف موقفيته ومد بمجساته ليهيمن على حياة الفرد المأزوم كاملة.

يعرض الخطاب النصي المعني بالدراسة أزمة الشخصية المحورية"هوزيه"، التي تعاني تخبط وانهيار للهوية بفعل توليفة من العوامل، التي لا يجمعها شيء غير حلفها لقهره، ورسم خطاطة مهشمة لذاته.

إن السلوك الذي يتبناه الفرد، والهوية التي ينتهي إليها نهاية المطاف هي نتاج ترسبات الماضي، التي تعاند في الحضور للسطح مكدرة صفو حياته

«إن ما يثير الأزمة النفسية الاجتماعية الأولى في حياة الطفل هو نوعية رعاية الأم وهذه النوعية تتميز بعدم الثبات وعدم الملائمة[...]تنمي الأم عند الوليد اتجاها نفسيا اجتماعيا قوامه الخوف والريبة والرهبة نحو العالم والناس، تظهر آثاره السيئة في مراحل النمو اللاحقة للشخصية»[1].

ولعله يمكن إجمال الأسباب التي جرفت الذات نحو التشتت في النقاط الآتية:

– التمزق بين جذب الفلبين ونبذ الكويت: إذ ظلت الشخصية تعيش على تخوم الأوطان التي أوجدته طفلا ونبذته رجلا، فهو«شخص قضت ظروفه بأن يعيش في مجتمعين، في حضارتين ليستا مختلفتين فحسب، بل ومتعارضتين، واحدة مسيطرة والثانية تابعة»[2] ذلك ما يوّفي شعوره بالضياع والغربة والتشتت، وتضعف شعوره بالانتماء الاجتماعي والوطني والذاتي كما تفتت هويته.

– ولعل ما يرسخ شعوره بعدم الاستقرار أيضا بالإضافة إلى انتمائه المزدوج وتجاذبات الولاء وقلق الخيانة، ضياعه بين الأسماء

[1]– جابر عبد الحميد جابر: نظريات الشخصية(البناء–الديناميات–النمو–طرق البحث–التقويم)، ص169.

[2]– مُحَّد خليفة عبد اللطيف: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، دار غريب، القاهرة، د.ط، 2003، ص141.

«اسمي Jose [...] ننطقه في الفلبين [...] هوزيه [...] في الاسبانية، خوسيه. وفي البرتغالية[...]جوزيه.أما هنا، في الكويت، فلا شأن لكل تلك الأسماء باسمي حيث هو..عيسى![...]العالم كله قد اتفق على أن يختلف عليه!»[1].

– عانى بعد ولادته من فقدان حنان الأب، الذي تخلى عنه بسبب رفض أسرته والمجتمع له لنسبه(الوضيع كما يقولون)لأمه الخادمة الفلبينية جوزافين، ذلك النسب الذي كان ليجر عليهم ويلات العار، وجر عليه في النهاية شعورا بالنبذ«أينا يمثل لعنة الآخر؟ جدتي تقول أنني لعنة حلت على الطاروف، وما أراه وأعيشه هو أن الطاروف لعنة حلت بي»[2] ثم عانى بعد زواج أمه فقدان عطفها؛ فانشغلت عنه ببيت زوجها ثم بأخيه، متخلية عن المسؤولية المنوطة بها لرعاية طفلها وبعد ذلك غادرته إلى بلاد البحرين لتزاول عملها القديم كخادمة، فقد عاش اليتم وعانى الحرمان العاطفي على الرغم من كون والديه على قيد الحياة«تثبت الدراسات أن الأطفال الذين ينشغل عنهم آبائهم وينشئون بعيدا عنهم، يبدون دائما خلالا في قدرتهم على إقامة روابط محبة بالآخرين»[3].

– بالإضافة إلى كل هذا عانى بعد ذلك الوحدة والاغتراب المزدوج(الثقافي/الأسري)في بلاد أبيه التي نزل بها طالبا الاعتراف الأبوي، لكنه قوبل بالرفض، وانحطمت كرامته تحت ظل السمعة. كذلك يؤثر فيهم ذلك على المدى البعيد، حيث أبدت الشخصية عدم التوافق، وسلوكا انطوائيا –نوعا ما– إذ لم تسعى لاكتساب علاقات صداقة طويلة المدى، بل اكتفت بالعلاقات العابرة إذا استثنينا جماعة "مجانين بوركاي"و"إبراهيم سلام"، ولعل ما جمعه بهم هم أيضا المصلحة الذاتية حيث أنه في البداية كان يبحث عن ذاته وهويته الكويتية في جماعات الكويتيين الوافدين إلى الأراضي الفلبينية سياحا«ظهور مشعل على هذا النحو منحني فرصة الاقتراب من"كويتيتي" التي لم أشعر بها قط»[4] أما "إبراهيم" فقد شكل العصا التي يتكأ عليها إثر كل كبوة؛ فكان يلجأ إليه فقط حينما يحتاج مساعدة من نوع ما.

[1]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص17.

[2]– المصدر نفسه: ص367.

[3]– مايكل راتر: الحرمان من الأم(إعادة تقييم)، تر:ممدوحة محمّد سلامة، مكتبة أنجلو، القاهرة، ط2، 1981، ص11.

[4]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص346.

– الشعور بالدونية الذي كان يسومه في كل يوم سوط، بفعل شعوره بالغرابة عمن حوله وباختلافه عنهم«قد ينمو الشعور بالقصور أو النقص أو الدونية إذا اكتشف الأطفال أن قيمتهم كأشخاص تتحدد على أساس جنسهم أو عنصرهم أو دينهم»[1] فاختلافه الذي يثير حفيظة كل من حوله واستنكارهم، يحبطه ويحط من تقديره لذاته

«من دون أن أظهر بصورة الكومبارس الذين يقومون بأدوار العرب في أفلام هوليوود. أنظر إلى الناس من حولي ولا أحتاج لأن أرفع رأسي إلى السماء كي أخاطبهم، ومن دون أن ينظروا إلى الأرض لينتبهوا إلى وجودي بينهم. أجلس في المقاهي والمطاعم الفخمة من دون أن يتهامس البعض مستنكرا وجود أمثالي»[2].

هذا الاختلاف الذي أعجزه عن الانخراط والتواصل الاجتماعي مع من حوله، وإن كان يحكمه بالدرجة الأولى خوفه وتراجعه الدائم، وتكيفه التنشئة الاجتماعية، بالإضافة إلى الاستعدادات التي يملكها الفرد في التعامل مع واقعه، أفضى كل ذلك إلى شعور بتأزم الهوية«إن إخفاق الشباب في تنمية هوية شخصية بسبب خبرات الطفولة السيئة والظروف الاجتماعية الحاضرة يؤدي إلى[...]أزمة هوية»[3].

– تعرض هوزيه للاضطهاد من طرف الجد مندوزا، ولهذه المعاملة دورها هي الأخرى في تفعيل شعوره باللاقيمة وتكوين شعورا بالعزلة الاجتماعية التي تبناها في مراحل متقدمة من عمره«يبين آدلر أن العزلة الاجتماعية لدى الفرد تعود إلى تعرضه لسوء المعاملة[...]مما يؤدي إلى شعوره بالنقص»[4] فسوء المعاملة التي يتعرض لها الفرد تنمي في داخله هواجس والشعور بالقلق الدائم اتجاه الناس والمواقف التي تتطلب ثباتا«كرهت نفسي حين عجزت عن ردعها من أن تبدو بهذا الضعف»[5] أيضا قد تولد شعورا بالذل والمهانة، وفتور الانفعال«رغم كل الظلم الذي أعانيه اعتدت[...]أن أدير خدي الأيسر لمن يصفع الأيمن»[6].

---

[1]– جابر عبد الحميد جابر: نظريات الشخصية(البناء–الديناميات–النمو–طرق البحث–التقويم)، ص176.

[2]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص63–64.

[3]– جابر عبد الحميد جابر: نظريات الشخصية(البناء–الديناميات–النمو–طرق البحث–التقويم)، ص179.

[4]– عبيد صبحي وتومي الخنساء: «سوء معاملة الأطفال في المجتمع(بين الأسباب والآثار)»، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي العدد2، نوفمبر2013، ص165.

[5]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص206.

[6]– المصدر نفسه: ص65.

– عقدة الذنب التي ما فتئت تكبل حركته، وراحت تسحبه إلى الوراء وتعجزه عن التقدم

«إن الطفل الذي يعوق الإثم حركته يشعر ويخبر الاستسلام وعدم الجدوى، ومثل هؤلاء الأطفال يخافون تأكيد ذواتهم ويعيشون على هامش الجماعات[...]وتنقصهم الشجاعة لتحديد أهداف ومرامي عيانية»[1]

ذلك خوفا من تكرار زلة الماضي، فتلاحظه متراجعا في كل خطواته يراجعها أكثر مما ينبغي ثم يعرض عنها في النهاية، لا لشيء ما غير أنه يخشى المجازفة والفشل«شعور بالذنب تجاه خطأ، لا أتذكر زمن حدوثه، يكاد يقتلني»[2] فعقدة الذنب التي التصقت بذاكرته وظلت تحظره وتعذبه بسبب سرقته لطعام العجوز"تشولينغ"، ثم بسبب حادث أخيه الذي أفقده ثباته العقلي، أثر وقوعه في اليم بعد أن أهمله وانشغل عنه باللعب في حين أوصته خالته برعايته«أدريان ..أخي الصغير.. ليت بمقدورنا أن نتبادل الأدمغة..أكفر عن ذنب لا أتذكر زمن حدوثه، وأريح قلبي من حيرة تسكن عقلي»[3].

– للبطالة دورها هي الأخرى في تعزيز شعور اللامعنى في حياة الفرد«المال الذي أجنيه كل شهر نظير الكسل الذي أمارسه بات يحتقرني وبت أخجل منه. شعوري باللاجدوى أخذ يتضخم في داخلي»[4]فالبطالة تغيب الفرد على المشاركة في مسرح الحياة، وتعزز فيه شعورا بالاغتراب، وتجعله في عزلته غير قادر على فهم واقعه«ابحث عن عمل يا عيسى..من خلال العمل فحسب يمكنك أن تندمج مع الناس»[5] وبالفعل فبعد ان تموقع في عمله صارت الكويت تشكل له بعدا آخر، فراح شعوره شعوره بلاانتماء يتبدد شيئا فشيئا وفهمه للواقع يترسخ وينمو.

وشكلت كل هذه التراكمات هوية غير سوية، قوامها الضعف والهشاشة. ويغدو أمثاله بشكل ما «ضعيفو التأثير فيمن حولهم، ولا يوجد لهم دور فعال في المجتمع»[6]ويفقدون القدرة على الاندماج في هياكله وأنسجته، ويعجزون في الغالب عن التأقلم مع مستجداته.

[1] – جابر عبد الحميد جابر: نظريات الشخصية(البناء–الديناميات–النمو–طرق البحث–التقويم)، ص174.

[2] – سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص85.

[3] – المصدر نفسه: ص273.

[4] – المصدر نفسه: ص303.

[5] – المصدر نفسه: ص323-324.

[6] – مُحَمَّد خليفة عبد اللطيف: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، ص144.

وفي ظل هذا العجز النفسي ككل راح يبحث عما يمكن أن يتمسك به حتى لا ينهار أثناء بحثه عن أناه، فكانت بلاد العجائب طريقه–كما رسمت له أقداره وأوهمته أمه–إلى الخلاص؛ مستجيرا من رمض الفلبين، سعى إلى الكويت بحثا عن تحديد للذات ومفهوم مغاير للهوية التي ظلت ضبابية مغبشة حتى ذاك الحين، ثم أملا في الارتباط بالجذور، وسعيا للاندماج الأسري، فوجد نفسه عالقا في طاروف المجتمع الرجعي، في أسرة مفرغة العواطف، تحكمها المادة والمراكز الاجتماعية، متبرئة من كل القيم الإنسانية. وفي كنف أسرته يأنس شعورا جديدا في داخله مفهومه التشيؤ؛ حيث يحضره بفعل النظرة الدونية التي خبرها داخلهم، بتفعيل من نسبه وسحنته«أنظر ماذا حل بصديقك بعد ولادة ذلك الشيء البغيض»[1]يتطور معه شعوره هذا بتطور العلاقات التي تجمعه بهم«كنت أتخيلني حصاة مهملة»[2] ليأنس الأشياء بدل الأشخاص، ثم تصبح هي نفسها في نظره أكثر قيمة منه، فشعوره بالدونية والتحقير يستمر في الانحدار إلى طبقات الوجود الدنيا مهشما توافقه النفسي«لو كنت شيئا..أي شيء..واضح المعالم»[3] ثم فيما بعد يقارن نفسه بالأشياء بدل البشر فيعنون سيرته–التي ادعى السرد أنها كذلك–ب"ساق البامبو" لتتحد الساق وإياه فيشكلا كيانا واحدا، ثم إنه عبر عن كيانه بالساق لا بالشجرة؛ وذلك بما مؤداه الانفصال عن الشجرة الأم، التي ولد منها ونبت ثم تخلصت منه، فهو منبوذ في غيابات العزلة الموحشة التي أقصته للعراء، ومعزول عن تربته التي تحقق له الثبات النفسي، وكان من الصعب على ساق مثله أن يمد جذوره لأنه لم يغرس فعلا على أرضه بل بقي معلقا، ليدخل في حالة تيه سرمدي«أي تيه هذا الذي أنا فيه»[4]وحتى البامبو نجح في تحدي ذاكرته، وانتمائه، في حين فشل هو في ذلك «أراد أن يزرعني من جديد، متناسيا أن النباتات الاستوائية.. لا تنمو في الصحراء»[5].

لقد تراجع شعوره بالثقة فيمن حوله، فكانت الأشياء المحيطة مصدر تعوضه عن ذلك الشعور بالفراغ«غريبة حاجتي للحيوان في ذلك الوقت. ما أكثر الحيوانات في أرض مندوزا. الكلب العجوز وايتي، الديوك، القطط، العصافير والضفادع والسحالي، ولكنني لم أشعر بأهمية هذه الكائنات من

[1]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص51.

[2]– المصدر نفسه: ص93.

[3]– المصدر نفسه: ص65.

[4]– المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[5]– المصدر نفسه: ص387.

قبل»[1] فهو يخبر شعور الؤنس مع الحيوانات، بعد أن تتحطم تلك الألفة مع البشر في بلاد أبيه ففي الفلبين لم يكن في حاجة إلى رفقة الحيوان، لأن رغم التفكك الأسري الذي تعيشه عائلة أمه إلا أنها تملك من الحب ما يكفي للحب، أما في العائلة الكويتية رغم إدعائها للتماسك إلا أنها تملك من البرود ما يكفي لإرساء الغربة في نفوس أفرادها المتعبة«في بلاد أمي كنت لا أملك شيئا سوى عائلة. في بلاد أبي أملك كل شيء سوى..عائلة»[2] فلم يستطع رهن مشاعره بأشخاص ناصبوه العداء رغم قرابة الدم التي تجمعهم، فاتخذ من تلك الأشياء تعويضا عن الفراغ النفسي الذي يشعر به والوحدة التي لازمته ونكلت بهويته؛ فكانت السلحفاة مصدر أنسه، مستمعة وفية يفضي لها آلام أتراحه وأفراحه«تنشأ علاقات اجتماعية بين الأشياء، وعلاقات مادية بين الأفراد الأمر الذي يؤدي إلى أن يمنح البشر ثقتهم للأشياء وليس لبعضهم البعض»[3].

نالت منه مآسيه وسلبت توازنه أو أخلت به ف«كان المونولوج الداخلي سبيله لإفراغ ما يحتويه وعيه وما يصطرع بداخله من مكنونات وتعقيدات تؤكد اغترابه النفسي والأسري»[4]إذ لم يجد من يسر له وقد كانت الأشياء التي أتخذها لا تفقه ولا تواسيه في شيء«الحديث إلى سلحفاة خرساء بات مملا»[5]لذلك لم يجد بدا لإيجاد بعض الهدوء إلا عن طريق أحلام اليقظة«أراني في خيالي مرتديا مرتديا الثياب البيضاء. أقبل رأس جدتي أهنئها بالعيد. طردت الصورة من رأسي بعد أن مللت ممارسة الخيال الكاذب»[6] فعندما خذلته استدعى تقنية فاعلة قوامها البوح الداخلي لرثاء ذاته المهشمة «المنولوج في حد ذاته دليل على أزمة حوار وانعدام التواصل»[7] فتتمدد لحظات المونولوج الصامت ويتمدد معه الزمن النفسي الذي يوسع بدوره دائرة الغربة الذاتية، ثم بعد ذلك الكتابة النقدية التي لخص فيها سيرورة حياته. فكشف السرد عن ذات متخبطة في سريرتها، تحفل بصراع نفسي باطني يفضي بها إلى اللاتوازن ثم إلى أزمة نفسية.

---

[1]- المصدر السابق: ص262.

[2]- المصدر نفسه: ص303.

[3]- مُحَمَّد خليفة عبد اللطيف: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، ص43.

[4]- هنية مشقوق: «تجليات الحس الاغترابي في رواية بحر الصمت لياسمينة صالح»، مجلة المخبر(أبحاث في اللغة والأدب الجزائري)، جامعة بسكرة العدد10، 2014، ص480.

[5]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص305.

[6]- المصدر نفسه: ص274.

[7]- الأخضر بن السايح: سرد المرأة وفعل الكتابة(دراسة نقدية في السرد وآليات البناء)، دار التنوير، د.ط، 2012، ص35.

ظلت الأنا رغم اضطراب النسيج العلائقي الاجتماعي تعاند التيار الدافق الذي راح يعصف بها في محاولة لدفعها بعيدا، وضرب جذورها«انصرفت عن فكرة السفر[...]ليقيني بأنني إن فعلت قبل أن تنبت لي جذور في بلاد أبي، سوف لن أعود أبدا»[1]لكنه لم يستطع مد جذوره، بسبب تصخر وجفاف أرض الجنة.

على الرغم من أن الكويت كانت فضاء لتحطيم الآمال ووئد الأحلام إلا أنه لم يتنصل من انتمائه لها بل ظل يبحث عن تعريف لهذا المحل فيمن يحب«حاولت أن أختزل وطني في أشخاص أحبهم فيه. ولكن الوطن في داخلهم خذلني»[2]. الرياح الغادرة التي أطاحت ونسفت ما تبقى من هويته الكويتية، واقتلعته للمرة الثانية من جذوره مهددة مصيره، لتكشف في النهاية عن أنقاض ذات مهترئة مسطحة الوجود، ظلت تكابد حتى لا تنهار.

يحاول هوزيه إيجاد موقعه من كل هذه التناقضات، التي وبالفعل كانت سببا في وجوده، فتستمر ذاته في التخبط بحثا عن هوية محددة، أو فهم راسخ لهوية موجودة بالفعل، فيكون الآخر المجهول والذي منيت به ملاذه الذي يتوهم أنه سيحقق له ذلك التوازن المنشود«لأول مرة أشعر باللاجدوى. حلمي القديم..الجنة التي وعدت بها»[3].

يفصح السرد عن حالة اضطراب وجودي، وصراع داخلي بين تردد دائم وخوف وقلق، ومحاولات لتصعيد التفاعلات المتبادلة بمحيطها بدل الأداء الاجتماعي الهابط الذي يسرق منه لذة الوجود فالذات متخبطة في سريرتها وفي ذوات الآخرين وفي الأوطان.

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص312.

[2]- المصدر نفسه: ص304.

[3]- المصدر نفسه: ص303.

المبحث الثاني: الذات ومأزق الاغتراب

استطاعت الرواية أن تضطلع بكوكبة من العوالم المتناقضة، وأن تعتنق جملة من الإيديولوجيات التي تمررها عبر طائفة من الشخصيات المتصارعة ومتوادة، مشكلة فضاءات اجتماعية متخيلة، تزخر بالعديد من الدلالات المحملة عبر الفسيفساء النصية.

ولعل أهم ما ساسته الرواية في الواقع الفعلي هو أزمة الإنسان الجديد، حيث شيدت معماريتها من خلاله ونفخت روحها، واستحالت هي متنفسا له، ولكن الأمر لم يتعلق باجترار الواقع وإعادة تكريره فالرواية تزيد من تعميق الأزمة التي ترتشفها من محلها(أو تهتك الستر عنها على الأقل)لجعل المشهد المراد تمريره أشد مأساوية، ذلك لإسعاف الأثر في نفس المتلقي ليكون أكثر تجاوبا معها وبما أن الرواية لسان حال المجتمع فقد سعت لدحض ما دأبت عليه الأعراف لتطبية المشاكل الشائكة التي يعاني منها المجتمع.

وسمت التغيرات الاقتصادية والسياسية..أثلاما على جباه المجتمعات الغافلة، وتركت أفرادها يرزحون في ظلام الغربة الدامس؛ فالنقلات السريعة التي شهدتها(في بنياتها المختلفة) في زمن العولمة، والمد الثقافي للإثنيات النازحة الذي رحبته المجتمعات الكوزموبوليتانية، جعلت الفرد مشدوها من سيرورة الأحداث الجارية، التي لم تترك له فرصة للتأمل أو لاستيعاب تقلباتها المتلاحقة، ذلك ليمد الاغتراب بمجساته فينال من صلب النفسيات المرهقة.

يتشظى الاغتراب إلى عدة مستويات متكاملة متداخلة، تنضوي جميعا تحت عباءة الذوات المأزومة:

أولا: الاغتراب الاجتماعي

الانتماء الاجتماعي هو«اتجاه يستشعر من خلاله الفرد توحده بالجماعة، وبكونه جزءا مقبولا منها، ويستحوذ على مكانة متميزة في الوسط الاجتماعي الذي يعش فيه»[1]أما الاغتراب الاجتماعي فهو على النقيض من ذلك، وهو هنا في هذه المدونة يتخذ عدة وجوه؛ إما التطرف والخروج عن نواميس المجتمع، أو الخضوع التام له، أو الانعزال بشكل قصي عنه، وهي الأشكال التي ساقتها الرواية في عدة شخصيات:

تطرف ميرلا:

ميرلا شخصية سيكوباتية؛ مضادة للمجتمع، زوجة البطل"هوزيه" وابنة خالته"أيدا" ولدت من علاقة سفاح من رجل إسباني محتل«لا أنظر في هذا الجمال سوى علامة[...]تذكرني بماضي أمي وظروف ولادتي لديك أوروبي حقير»[2]فشكل هذا الماضي على الرغم من أنها لم تشارك فيه، حفرة غائرة في ذاتها، ظلت تتجرع مرارته في حنق؛ حيث عانت بسبب مجهولية نسبها خللا في علاقاتها الاجتماعية، وكان سببا في تطرفها، فقاسمت الجنس الآخر عداوة لا نظير لها«الذين لا يستطيعون الاضطلاع بتنوعهم الخاص يجدون أنفسهم أحيانا بين أشد القتلة على الهوية فتكا يهاجمون الذين يمثلون ذلك الجزء الذي يريدون طمسه من أنفسهم، إنه"كره الذات"»[3] .

أصيبت ميرلا بالذهول بعد أن علمت بحقيقة أمها، فكان ذلك بداية الصدمة، التي جعلتها تعيش حالة اغتراب اجتماعي؛ فأعلنت كرهها لأسرتها، كرهها للعالم من حولها، والرجال بشكل مبالغ فيه، إلى درجة تبنيها للنزعة السادية ضدهم«أتسلى بخضوعهم[...]لا أرى في انحنائهم أمامي سوى دجاجات ضعيفة[...]شعور بالرضى يملؤني»[4] ثم كرهها لنفسها لأنها جزء من هذا الكل.

مرت ميرلا خلال مراحل بحثها عن ذاتها بأزمات متعددة«إثنان وعشرون عاما لم أعثر فيها على نفسي. لا زلت أبحث عني ولم أجدني»[5]أزمة الهوية الفردية والاغتراب هي أهم الأزمات التي

---

[1]- محمد خليفة عبد اللطيف: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، ص21.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص281.

[3]- أمين معلوف: الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء والعولمة)، ص36.

[4]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص282.

[5]- المصدر نفسه: ص281.

تخبطت فيها«هل تعلم أنني تغلبت على كل شيء إلا داخلي الذي أجهله»[1]فبقيت هويتها معلقة تبحث في شتى السبل حتى السالبة منها، لإيجاد حالة من التوازن. أعلنت وكنتيجة لكل ذلك ورغبة في الانتقام من الوجود خروجها عن المألوف، ولأنها في مرحلة البحث عن ملامح للذات فقد أعلنت مثليتها وتمردها عن الأخلاق«ميلها لجنسها»[2]حيث جعلت هذه الانفلاتة تتسم

«بانعدام المعايير[...]أو اللامعيارية، حيث التوقع المرتفع بأن تكون الوسائل غير المقبولة اجتماعيا ضرورية للوصول إلى الأهداف المرجوة، والشعور بعدم الاتزان بالمبادئ والمعايير الاجتماعية للسلوك وتناقضها وغلبة الأهداف الشخصية، والسعي إلى تحقيق أساليب مرفوضة اجتماعيا. وتحدث حالة انعدام المعايير نتيجة للانهيار في البناء الاجتماعي واضطراب أهداف المجتمع، وعجز الأفراد عن الوصول إلى هذه الأهداف»[3].

تتخبط ميرلا في رحلة بحثها عن استقرار للهوية بكل السبل المتاحة سواء وافقت المجتمع أم خالفته فرغبة من الانتقام لأمها ومنها عارمة أدت بها لكره كل من حولها، الأمر الذي أحدث في داخلها شعور بالمرارة حيث«تؤدي عدم القدرة على تكوين علاقات ودية بآخرين إلى الشعور بالخواء الاجتماعي والعزلة»[4]ولعل فلسفة اللامبالاة التي انتخبتها أرادت بها تهشيم ماضي الخطيئة الذي ولدت من صلبه، وحاضرها الذي يعيدها إليه كلما تفحصت ملامحها، ليقذف بها نهاية المطاف إلى شعور قوامه اللامعنى واللاجدوى

«يعاني كثير من المراهقين من صراع العصر، ويخبرون إحساسا عميقا بالتفاهة، وبعدم التنظيم الشخصي، وبعدم وجود هدف لحياتهم، إنهم يشعرون بالقصور والغربة، وأحيانا يبحثون عن هوية سلبية، هوية مضادة للهوية التي حدد خطوطها الوالدان أو جماعة الأتراب، ويفسر البعض السلوك الجانح بهذه الطريقة»[5]

[1]- المصدر السابق: ص282.

[2]- المصدر نفسه: ص126.

[3]- محمد خليفة عبد اللطيف: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، ص145.

[4]- جابر عبد الحميد جابر: نظريات الشخصية(البناء-الديناميات-النمو-طرق البحث-التقويم)، ص182.

[5]- المرجع نفسه: ص179.

فشعورها بالفقد الذاتي واللاجدوى دفع بها للتفكير في التخلص من كيانها بالانتحار«أتمنى أن أنهي حياتي قفزا من هذا الجسر»[1]وهو نتيجة حتمية للضياع الذي عاشته بقرف، والخدر العاطفي الذي سكن قلبها المتمردة، بسبب عدم قدرتها على التكيف مع محيطها وحقيقة ذاتها، الأمر الذي رسى بها إلى حالة من الكآبة واضطرابات في التفكير، إضافة إلى ما جره عليها تعاطيها للمارجوانا التي تهالكت عليها رغبة في تناسي مأساتها وهروبا من الواقع المرير؛ فأصبحت أحاديثها غير مترابطة وتفكيرها مشتتا[2]«رسائلها الإلكترونية تشي باضطراب نفسية تمر بها ابنة خالتي. أزعجتني الرسائل التي لم أتمكن من فهم محتواها فهي أقرب إلى الهلوسة»[3].

لكن اليد التي امتدت لها من الرجل الوحيد الذي تألفه«أنت الرجل الوحيد الذي لا أحمل تجاهه شعورا عدائيا»[4]أعطاها أملا جديدا في الحياة، وأخرجها من الذهول الذي ظلت تعيشه فترة مراهقتها في سفه وطيش«يرى أركسون أن الإحساس الخلقي يتطور مع إدراك الفرد لقيمة التزامه بصداقات باقية ومسؤوليات اجتماعية»[5]ففي مرحلة الرشد المبكرة من حياتها؛ أي في سن العشرين العشرين المرحلة –كما يعتقد أركسون–التي يبحث فيها الفرد عن الاستقرار في شخص يقاسمه الحياة ويستكن له، وهي مرحلة حاسمة في حياة الفرد لتكوين علاقات اجتماعية راسخة«حاجتي لرجل أرفضه تخنقني»[6].

خضوع راشد:

راشد هو أب البطل هوزيه الذي لم يتمكن من إثبات وجوده عن طريق رسم طريقه الخاص بنفسه بل كان المجتمع ومن خلفه والدته يحددون مصيره دون أن يحرك ساكنا«ليس بيده القرار لان مجتمعا كاملا يقف ورائه»[7]وهو شعور بالاستلاب صاحبه إلى وفاته، والملفوظات الحكائية تعبر عن حالة التبلد والخضوع للمجتمع في استسلام تام، يبرره ضعف شخصيته التي ربما بشكل ما أورثها لابنه

[1]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص115.

[2]– هاني عرموش: المخدرات إمبراطورية الشيطان(التعريف–الإدمان–العلاج)، دار النفائس، بيروت، ط1، 1993، ص108.

[3]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص280.

[4]– المصدر نفسه: ص281.

[5]– جابر عبد الحميد جابر: نظريات الشخصية(البناء–الديناميات–النمو–طرق البحث–التقويم)، ص182.

[6]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص282.

[7]– المصدر نفسه: ص295.

فيما بعد. ولم يكن قراره من الزواج بالخادمة أو تمسكه بابنه إنبجاسا للمكبوت أو تحطيما للقيود الاجتماعية التي ضاقت نفسه بها أو انحلالا من السلطة التوتاليتارية لأمه، ولكنها رغبة في التنفيس؛ فهو لم يكن يرغب فعلا بها حيث تخلى عنها مباشرة بعد الزواج دون وجود تبريرات لهذا التصرف، ولعل إبقائه على ذلك الزواج سرا دليل على ذلك، وحتى تمسكه بابنه ومواجهته لأمه شابه ضعف كبير ورغبة متواصلة في التراجع لكن عندما علم أن ميلاد ابنه لن يعيده لحضن أمه، تخلى "أوديب" عن مسؤولياته وأذعن من جديد تحت جناح أمه في استسلام تام«لن استمر في لعبة لست اعرف قوانينها»[1]فظل خاضعا حتى الممات لإرادة الآخرين، ولم يورد السرد تحقيقه أو استمراره في طريق انتخبه بنفسه، حتى روايته تلك التي هم بكتابتها مات قبل أن ينهيها، وربما تعمد عدم إكمالها تجنبا للويل الذي كان ليحل به بسبب النقد اللاذع الذي حمله فيها.

عزلة غسان:

غسان هو شخصية"البدون"التي تم تناول مأساتها في الفصل السابق، وقد عانى بسبب تلك الصفة اللصيقة ويلات الغربة داخل الوطن التي دفعه إليها النظام الاجتماعي دفعا، وجعلته يشعر معها بحالة من العجز وعدم القدرة على تحقيق الذات في واقع يرفضه، وينخر ذاته ويحطمها في لجة الوجود وصخبه، فينتبذ لنفسه مكانا قصيا[**] وينعزل فيه عن الناس، يتجرع مرارة غربته وينحت ألمه فيها«لو سألت يوما كيف يبدو الحزن؟ سأجيب:"وجه غسان"»[2]لم يكن باستطاعته أن يشعر بتقدير لذاته ما دام المحيط يهمشه ويقصيه خارج إطار الجماعة، ولعله

«يندر أن يوجد بين الناس من يستطيع مواصلة الحياة السوية دون الدخول في النحن أو الشعور بالنحن، و الذي يعتبر مظهرا جوهريا للتعامل الاجتماعي بين أعضاء أي

[1]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص75.

[**]– المكان ليس ماديا هنا بل نفسيا، لأنه لم يعتزل الناس بالفعل لكنه رغم وجوده بينهم إلا أنه لا يحاول الإختلاط بهم، فهو يعيش في وحدة ووحشة بسبب الخيبات التي لحقته.

[2]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص187.

جماعة. فالشخص داخل النحن يشعر ويفكر ويعمل باعتباره أنا في مقابل أنوات أخرى بل كعضو في جماعة»[1]

فرفض النحن له جعله يشعر بعزلته في فضائهم، وجعل وجوده مسطحا بلاقيمة، ما أدى به رغم حبه الشديد لوطنه للتصريح«أنا لست كويتيا»[2]فالوطن الذي حارب من أجله لم يعد يستوعبه، فهو لم يتنصل من انتمائه إنما انتمائه تنصل منه، ليتركه من دون هوية وطنية ثم من دون هوية جماعية ثم من دون هوية ذاتية.

غنيمة ورهاب المستقبل:

غنيمة جدة هوزيه لأبيه، العجوز التي ظل المجتمع يسير حركاته، وعلى أساسه وبمنطقه أحكمت قبضتها على نواصي أبنائها، فلم تسمح لهم بانتخاب سبلهم بل كانت هي صاحبة القرارات إذ رفضت أن يتزوج ابنها بمن يحب، ثم رفضت حفيدها كونه من نسب وضيع، ثم رفضت أن تبني ابنتها حياتها مع شخص مهمش، فكانت المسيطرة على مقاليد الأمور.

لكن رغم ذلك كان أكبر همها وهاجسها الأسمى المستقبل وما يحمله، فصارت كل الحوادث بالنسبة لها إشارات لشيء ما، فاعتقدت بكل شيء، حتى أتفه الأشياء كانت توجسها وتثير حفيظتها«كانت متطيرة، تؤمن بما تراه في أحلامها[...]وتنظر إلى أي شيء[...]على أنه إشارة»[3]لكن ذلك لم يجر لا عليها ولا على أسرتها إلا الويلات، حتى أنها ظلت تنتظر تحقق تنبؤاتها، وبذلك ظلمت كل من حولها من بينهم جوزافين التي اعتبرت مجيئها رسالة شئم«وصلت أمي إلى الكويت في وقت حرج. وقد تشاءمت جدتي كثيرا لقدومها»[4] ذلك أن حلولها بالكويت تزامن مع تفجير الموكب الأميري، ومنها تنتقل اللعنة إلى ابنها.

ولعل ما يفسر قلقها من المستقبل، وكما يرى فرويد أن«التشاؤم لا يقع في حياة الفرد إلا إذا تكونت لديه عقدة نفسية[...]تجاه موضوع ما»[5]فخوفها من انقطاع سلالة الطاروف هو الدافع

---

[1]- محمد خليفة عبد اللطيف: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، ص144.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص191.

[3]- المصدر نفسه: ص29.

[4]- المصدر نفسه: ص30.

[5]- بدر محمد الأنصاري: التفائل والتشاؤم(المفهوم والقياس والمتعلقات)، مطبوعات جامعة الكويت، د.ط، 1998، ص12.

وراء تطيرها«تخشى جدتك على ولدها كثيرا، فهو ليس ابنها الوحيد فحسب، بل إنه آخر الرجال في العائلة. اختفى الذكور من أسلافه مع سفنهم الشراعية»[1]لكن خوفها لم يمنع ذلك، فكانت غنيمة

«تتمنى أن ترى ذرية راشد، الذكور تحديدا، أولائك الذين من شأنهم أن يضمنوا استمرار لقب الطاروف[...]أما وقد استشهد أبي أثناء الاحتلال دون أن ينجب ذكرا، على اعتبار أنني مجرد"شيء"[...]فقد أصبح استمرار لقب الطاروف أمرا مستحيلا»[2].

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص34.

[2]- المصدر نفسه: ص211.

ثانيا: الاغتراب النفسي

مفهوم الاغتراب من مدلوله النفسي ملتبس إلى حد بعيد، فكثيرا ما ينظر إليه على أنه مجموع العمليات النفسية، التي تجر الفرد غالبا للانكفاء على ذاته واعتزال المجتمع، ولكنه أقسى وأعمق مما يعتقدون«إنه انفصام الذات عن ذاتها لتغترب عنها كآخر[...]فالشيزوفرينيا هي أم الاغتراب»[1].

ويجسد هذه الحالة داخل المنجز شخصية"مندوزا"، وهي شخصية غير سوية، تعاني اضطرابا ذهانيا حادا، وذلك إثر ما عانته من أزمات في حياتها، وإن أعرض السرد عن إيراد تفاصيلها«مر بظروف قاسية في شبابه»[2] فهذه الأزمات التي تكبدها جعلت قلبه يتصلب وتفاعله مع محيطه الأسري ينحسر، ولعل من كبرى أزماته مجهولية نسبيه، لذلك كره من حوله وكره حفيديه؛ إذ ظل يكرر في نوبات هذيانه«أكره مجهولي الآباء»[3] ينضاف إلى ذلك الأزمة التي أطاحت بكيانه نهائيا في حرب الفيتنام«في جبال فيتنام، سلب الثوار الموالين للشمال إنسانية أبي[...]لابد أنه مر بما لا يمكن وصفه، ليعود[...]بهذه الصورة التي تراها»[4].

فاستئناس مندوزا لمصارعة الديوك وتبديد أمواله فيها، ما هو إلا رغبة في التنفيس عن الضغوطات التي ظلت تستبد وتفتك بأعماقه«وما إدمانه على مراهنات مصارعة الديوك هذه إلا شكل من أشكال التنفيس عن الغضب»[5]فالعنف والعصبية التي يلجأ إليها الفرد هي وسيلة للانتقام من واقع غير منصف، وهي حيلة دفاعية يثيرها اللاشعور حتى لا يتعرض الفرد للتضرر من جديد، وذلك بترهيب كل من حوله، وكأنه يسقطهم في مواقف الماضي التي تسببت له بالصدمة النفسية، فلعله يلوم كل من حوله على مصابه«يكمن الاغتراب في أصل العنف ويكمن العنف في أصل الاغتراب»[6]فإن حالة الاغتراب عمن حوله جعلت إنسانيته تغيب في غمرة مأساته، لتهمد مشاعره الأبوية؛ إذ دفع ابنته لبراثم الخطيئة التي عرضتها للإكراهات وللعنف الجندري، دون أن يتحرك إحساسه الأبوي مستغلا خضوعها ومستثمرا جسدها من أجل المال وحده«لا ينظر الأبوان إلى

---

[1]- محمد خليفة عبد اللطيف: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، ص81.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص60.

[3]- المصدر نفسه: ص119.

[4]- المصدر نفسه: ص61.

[5]- المصدر نفسه: ص60.

[6]- حماد أبو شاويش وإبراهيم عواد:«الاغتراب في رواية البحث عن وليد مسعود لجبرا ابراهيم جبرا»، سلسلة الدراسات الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد14، عدد2، يونييه2006، ص125.

وجه ابنتهما، فنظرهما لا يتجاوز خاصرتها حيث حقيبتها. وتعود أحيانا بشفة متورمة أو أنف دام أو بكدمة زرقاء داكنة في فكها»[1].

إن حالة الذهول التي أصيب بها مندوزا إثر ما مر به في حرب الفيتنام جعل شخصيته تنهار وتتقهقر«كان يبكي بكاء مكتوما[...]"أنا ضعيف..أنا وحيد.."»[2] لذلك سعى لإخفاء هذا الضعف في ثنايا شخصيات أخرى، اصطنعتها ذاته من أجل التأقلم مع الواقع« التعامل مع مندوزا يعني التعامل مع رجال عدة، لكل منهم أسلوبه وذوقه بل وحتى تفكيره»[3] حيث أصيب"مندوزا"بانفصام متعدد في الشخصية.

كانت تصيبه بين الحين والآخر نوبات هلع حادة أفقدته عقله نهاية المطاف، ضف إلى ذلك ما جره عليه إدمانه "للتوبا"والتي أسهمت هي الأخرى في تشتيت شخصيته وفصمها، وسحبته نحو الاغتراب.

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص21.
[2]- المصدر نفسه: ص61.
[3]- المصدر نفسه: ص60.

ثالثا: الاغتراب الديني

يجسد هذا النوع من الاغتراب شخصية البطل"هوزيه"، الذي رسم رحلة بحثه عن دين حقيقي عندما وجد نفسه معلقا بين دينين لا يعرف عنهما سوى الاسم؛ المسيحية والإسلام«يصبح عقل المراهق عقلا إيديولوجيا يبحث عن الأفكار الملهمة والموحدة»[1]لذلك راح يبحث عن هويته الدينية، في غمرت الأديان التي ثقفها، لكن المؤسسة الدينية«حين تخفق[...]في توفير مغزى واضح وملموس، تفقد كثيرا من معناها بالنسبة له وقد يتحول عنها إلى غيرها»[2]هكذا بقي يتخبط بين أديان شتى، ذلك أن أيا منها لم يحقق في داخله التوازن الذي يرجوه، ولعل ذلك بسبب الفهم المنقوص لأصحاب الديانة، فتجده يخفق في كل مرة في إيجاد طريقه بسبب إخفاق الإيديولوجيات المحيطة، وكذلك عدم اهتمام والديه بتلقينه تعاليم دين معين«أهملت والدتي تربيتي دينيا، على يقين أن الإسلام ينتظرني مستقبلا في بلاد أبي»[3]لكنه حين وصل لبلاد أبيه لم يلق منهم القبول، الذي يدفعهم للاهتمام بما يؤمن به، بل كان اهتمامهم مرتكزا لحمله على الرحيل.

ومن صور الاغتراب التي عاشتها الشخصية، جهلها بالشعار الدينية الصحيحة، فتراه يصلي في المعبد بطقوس مسيحية، ويصلي في المسجد بطقوس خاصة به«تنصيب نفسي نبيا لدين لا يخص أحدا سواي»[4]ولعل دينه الخاص مستوحى من مجمل الديانات أو من أفضل ما حوته الديانات«في أذني اليمنى صوت الأذان يرتفع. في أذني اليسرى قرع أجراس الكنيسة. في أنفي رائحة بخور المعابد البوذية يستقر. انصرفت عن الأصوات والرائحة، والتفت إلى نبضات قلبي المطمئنة، فعرفت أن الله ..هنا»[5]لأنه حينما كان يمارس الطقوس الدينية يعترف بعدم اسوعابه لمنطق بعض الشعائر الغريبة وذلك يخلخل الإيمان بداخله«الأديان أعظم من معتنقيها»[6]لكنه يسلم بها حذو من حوله حتى لا يفقدوا إيمانهم به أو يستنكروا فعله فيحدث ذلك شرخا وفجا في العلاقات التي تجمعه بهم«نتظاهر بالإيمان، ونمارس طقوسا لا نفهمها، خوفا من خسارة شيء نؤمن به»[7].

---

[1]- جابر عبد الحميد جابر: دراسة في سيكولوجيا الاغتراب، ص178.

[2]- المرجع نفسه: ص171.

[3]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص63.

[4]- المصدر نفسه: ص63.

[5]- المصدر نفسه: ص300.

[6]- المصدر نفسه: ص299.

[7]- المصدر نفسه: ص65.

ومن المفارقات الدينية تسمية"عيسى"، ولعل صاحب البامبو انتخب لبطله ذاك الاسم موازاة لاسم المسيح، الذي جر ليدفع حياته-كما في الاعتقاد المسيحي- ليكفر عن أخطاء غيره، وبالفعل ما حصل لهوزيه الذي دُفع إلى أتون الغربة ليكفر عن أخطاء والديه، في خضم رحلة حياة سيزيفية استنزفت هويته.

رابعا: الاغتراب الأسري واللغوي

شخصية خولة:

ظلت خولة تعاني من اغتراب مزدوج، فرغم حب أهلها لها، إلا أن ذلك الحب لم يستطع منحها الاستقرار النفسي الذي تحتاجه، فقد ظل الفج الذي يبعدها عنهم في الاتساع«هي وحيدة بالرغم من أنها محاطة بجدتي وعماتي»[1]يدفعها ذلك لتحذو حذو أبيها؛ وتحاول إكمال حلمه لا حلمها لأن المراكز الاجتماعية منعتهم حتى الحلم«قبل أن تقع في الحب[...]يجب أن تختار الفتاة التي سوف تحبها»[2]هذه إجابة الجدة لابنها لما أعرب عن رغبته في الزواج من فتاة أحبها من طبقة دون طبقتهم، فالمشاعر والأحلام ترهن في صدوع تلك المراكز، ليكبل المجتمع عواطفهم ويوجه أحلامهم، وكثيرا ما يجهضها إن بدت له دون المستوى. لذلك بقيت تعاني الوحدة، تلك التي تدفع الفرد كما يرى العديد من علماء النفس في أحسن الأحوال إما إلى ممارسة نوع من الفنون كالنحت أو الرسم..أو إما إلى أحلام اليقظة، أو إما إلى معاقرة القراءة كما حصل مع خولة وأبيها اللذين انتخبا الكتاب مؤنسا«كلما شعرت بالحاجة إلى شخص يحدثني..فتحت كتابا»[3]أما إن شعرت بحاجة لشخص تحدثه هي وتفضي له«عزيزة..خير من ينصت إلي»[4]وعزيزة هي السلحفاة التي اتخذتها خولة هي الأخرى خليلة بدلا من البشر.

أما عن الاغتراب اللغوي الذي لم يحظ بالكثير من الاهتمام من طرف السارد، لذلك ورد معالجته لهذا الموضوع مقتضبة، فخولة أعربت عن عدم رغبتها بالتواصل بلغتها القومية، وذلك راجع لمواكبة المد العولمي للعديد من الشباب؛ هذا المد الذي وكثيرا ما حاول محو اللغة القومية وفرض اللغة الانجليزية، على اعتبار أنها لغة الأقوى، لذا فهي الوحيدة القادرة –بمنطقهم– على إحداث اللحمة الكونية. أما الروائي فقد بدا رافض لهذا التوجه، فاختار مقولة للكاتب القومي"خوسيه ريزال" لتعبر عن توجهه، جاء فيها«إن الذي لا يحب لغته الأم هو أسوأ من سمكة نتنة»[5].

---

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص259.

[2]- المصدر نفسه: ص37.

[3]- المصدر نفسه: ص259.

[4]- المصدر نفسه: ص260.

[5]- المصدر نفسه: ص258.

شخصية هوزيه:

أما شخصية"هوزيه" رغم جهلها التام باللغة العربية«كم كنت أحتاج إلى العربية»[1]كونها لغة التواصل اليومي الرسمية في المجتمع الذي حل به(مجتمع أبيه)، إلا أنه لم يحاول جاهدا رغم السنتين التي قضاهما هناك تعلمها، لكنه رغم ذلك أعرب في العديد من المناسبات عن حاجته إليها لفهم غيره«كأنني أشاهد فلما بلغة أجهلها، من دون ترجمة»[2] لكن السرد يبرر ذلك بقول الكاتب على لسان بطله«الكلمات الطيبة لا تحتاج إلى ترجمة، يكفيك أن تنظر إلى وجه قائلها لتفهم مشاعره»[3]لأن الشحنة التي تبثها الدفقات العاطفية للنفس في شكل موجات، سواء أكانت موجبة أو سالبة، يستوعبها الآخر، إذ هي ليست بحاجة إلى لغة تفسرها فهي لغة في حد ذاتها.

ويكشف الخطاب عن صورتين متوازيتين لنفس القيمة الأسرية؛ حيث أن أسرته في الفلبين كانت تستغل وجوده على أرض الكويت لتحسين أوضاعها المادية، غير عابئة بما يمر به من قهر، في المقابل أسرته الكويتية التي حاولت استرقاقه خوفا من اهتزاز المكانة الاجتماعية، ورغبة في تشويش الواقع، وتعمية الحقيقة عن طريق تغليف كيان الذات، جسده الاعتراف المنقوص المهتز، والعلاقة الأسرية المهترئة التي كانت تدفع به في كل مرة نحو الحضيض«إذا ما سألك أحد[...]أنت الطباخ الجديد»[4] وكما يقول نزار قباني:"نحن أقوام لبست قشرة الحضارة وارتشفت روح الجاهلية" فبلاده رغم أنها شرعت ذراعيها واسعة لاستقبال موجات الحضارة والعولمة، إلا أنها لم تستطع التخلي عن ذهنية القبيلة التي تدين بالتعصب والتمركز وتسيج تخومها الإثنية، ليثكل أبنائها لرجعية التفكير، مدانين بجرم وقع عليهم.

[1]- المصدر السابق: ص277.

[2]- المصدر نفسه: ص218.

[3]- المصدر نفسه: ص354.

[4]- المصدر نفسه: ص230.

خامسا: اغتراب الأمكنة وارتداد الذاكرة

على الرغم من أن أرض الكويت تشكل جزءا من ذات الشخصية البطلة"هوزيه"، فهي أرض أبيه التي نبذ منها طفلا، إلا أن وجدانه لم يحفل بأي مشاعر تجاهها، فقد نشأ حتى مرحلة متأخرة من حياته في أرض الفلبين، التي حوت أحلامه وشكلت ذاكرته الأولى، وعلى الرغم من أن الأنا الأعلى يظل يعانده ليزرع في دواخله حب الوطن الأول

«كنت لا أتصور نفسي في مكان غير أرض جدي[...]ولكن، ومع صعوبة الحياة والصورة التي كانت ترسمها لي أمي[...]أقنعتني[...]أننا نعيش في الجحيم، وأن الكويت هي الجنة التي أستحق»[1]

حيث ترتسم الأنا المثالية في حلم مرتقب، لكن الخبرات الواقعية التي عايشها في الكويت تولد صدام بين الواقع والحلم، فيتكون الصراع الداخلي الذي يوحي لانتكاسة الذات، ليحضره الوطن المنشأ في شكل فلاش باك، ويظل يفرض نفسه بقوة ويبث في خلجاته موجات الحنين، التي راحت تشده إليها شدا«في عزلتي هذه وجدتني اشتاق إلى عائلتي هناك بشكل مرضي»[2].

تتوزع أحداث الرواية عبر فضائين:

1- **الهنا**(الكويت)وقبل أن تكون"هنا"كانت تشكل الأمل والخلاص والنعيم المؤجل، ولكن عند الاتصال المادي بها، والاصطدام بالواقع، حدث شرخ في المكنونات الوجدانية للشخصية؛ إذ خاب أفق انتظاره، وحل محل العاطفة المشحونة بالحنين شعورا بالاغتراب.

2- **الهناك**(الفلبين)وقبل أن تكون"هناك"كانت تجسد الجحيم والعجز والفقر المادي والعاطفي، أما عند الانفصال المادي وتحولها إلى"هناك"، حدث اتصال عاطفي إذ وعت الشخصية مدى الدفء الذي كان يحتويها هناك«فالماضي يبرز بقوة بعد أن

---

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص71.

[2]- المصدر نفسه: ص304.

يتعثر الحاضر وتبطل آمال المستقبل»[1]لذا تفضل الذات العودة بذاكرتها إلى الوراء إلى الهناك رفضا للواقع الصادم، وحنينا لماض أكثر حميمية.

صارت الكويت تشكل فضاء للاستذكار، بفعل الجواء العاطفي الذي ما فتئت تصرفه بسخاء لصالح شخصياتها، ما أحدث في دواخلهم شعورا بالاغتراب مصحوبا بموجات نوستاليجيا للعرين المنشأ، ففي كل مرة تحرك ذكراه أحداث طارئة ترتد به إلى وطن أمه«في وجبة الغداء الأولى مع جدتي وعمتي وأختي[...]سرحت أفكر في ماما أيدا وأمي وأدريان»[2]فجلوسه قبالة العائلة التي ترفضه حرك حنينه إلى عائلة أمه التي تحبه. فتنبت في نفسه ومضات في الذاكرة تعيده إلى أرض مندوزا«مالي لا أسعد بهدايا عائلتي الكويتية كسعادة خالي بيدرو بقداحة السجائر التي لا تتعدى قيمتها المئة فلس»[3].

إن وجوده في أرض أبيه وبعد عدة مقارنات تتضح له الفوارق التي أحدثها المد الحضاري والترف المادي في صلب النفوس المجهدة، وشكل الفراق المنعرج الحاسم الذي استطاعت من خلاله الذات إدراك الآخر الفلبيني ومدى عمق ووطادة العلاقة الجامعة بينه وبينهم«وجودي في الكويت جعلني أتعرف على الفلبينيين بشكل أوضح»[4].

[1]- حامد صدقي وعبد الله حسيني: «مشكلة الاغتراب الاجتماعي في المكان الضد قراءة في رواية الحي اللاتيني»، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد4، شتاء2011، ص47.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص247.

[3]- المصدر نفسه: ص304.

[4]- المصدر نفسه: ص360.

ولعل الاغتراب الذي عانى منه كل واحد منه مؤداه الظروف التي عاناها على غرار الآخرين، فكل واحد منهم حتى وإن كانت تضمهم أسرة واحدة، ومنشأهم منزل واحد، فإن الظروف من المؤكد أن تختلف، حتى التفاصيل الصغيرة لابد في النهاية أن تحدث فرقا، وهو ما وضحته النماذج السالفة الذكر.

المبحث الثالث: صراع الهويات

ولعل منطق الحياة الاجتماعية في علاقاتها المتبادلة بين أفراد المجتمع يفرض وجود أفراد مسيطرون وآخرون خاضعون لتلك السلطة، ذلك أن الحياة مهما كانت منصفة فهي تفرض دائما قانون القطيع، وإلا لساد صدامات أسوء. أما اللبنة الأولى لهذه السلطة الضاغطة هو قانون الأسرة أو السلطة الأبوية، التي تمارس سطوتها على الفرد من بدايات حياته، مخلفة في داخله صراع آخر، يجره في الغالب نحو النكوص والاعتزال، وهذه السلطة تنتمي لسلطة أكبر، وهي سلطة المجتمع أو الأنا الأعلى.

أولا: صراع المركز والهامش

إن فلسفة المركز والهامش هنا تتمحور حول الشخصيات المسيطرة؛ تجسدها السلطة الأبوية والمجتمع، في مقابل الشخصيات الأخرى الخاضعة لها، والتي تدور في فلك الأولى«لا وجود للآخر إلا بوجود من يصوغه بصفته مهزوما أو منتصرا»[1]ومنه لا وجود للأنا إلا بوصفها هامشا لمركز أو مركزا لهامش.

ولعل أهم من يمثل سلطة المركز هما الجدان مندوزا وغنيمة اللذان يحوي مدارهما أفراد أسرتيهما، على أن الجدة كانت تخضع لضغط أكبر وهو المجتمع«أن تكون ضحية لمستبد أمر عادي، أما أن تكون ضحية لضحية أخرى»[2]فهو أمر يثير الحيرة، ولعل ذلك ما يفسر كون«كل طبقة اجتماعية تبحث عن طبقة أدنى تمتطيها وإن اضطرت لخلقها»[3]فالضغط فوق أكتافها يثيرها لخلق طبقة أدنى تخفف بها معاناتها، وبذلك تبقى الطبقات الأدنى تعاني الأمرين، والمجتمع على الرغم من كونه كيان غير مادي ولا محسوس إلا أنه يملك القوة المهيمنة المتحكمة في الزمان والمكان، وله السلطة في توجيه وإحداث وإدارة الصراعات.

إذا فالطبقات الاجتماعية في تفاعلها مع بعضها منوط بصراع(طبقي، اثني، جغرافي..) وتموقع الذات من ذلك يحدد صور الآخر في هيبته وسطوته. فهوزيه يحتل الطبقة الأدنى في سلم أو هرم الهويات فهو شخصية مستضعفة من أكثر من طرف، ما دفع به كل هذا الضغط إلى صراعات نفسية محتدمة داخله؛ ما يمثله المخطط أدناه.

تجد الهويات الهامشية متنفسها عندما تخرج عن فضاء الهويات الشرسة التي تكبلها ولكنها تعود إلى الانكسار بمجرد أن تتصل بمداراتها الأولى. حيث يوضح المنجز السردي كسر البطل للسلطة الأبوية الأولى التي كانت تضعف كيانه؛ وذلك بخروجه عن مدارها بحثا عن الذات، بل بحثا عن الانعتاق، بعد ذلك يجد نفسه تحت سلطة مزدوجة، أدت به في النهاية إلى خلخلة كيانه الهش الجدة غنيمة وأسرته ومن جهة أخرى المجتمع الذي ظل تحت سطوتهم إلى أن استقر به المقر من جديد في أرض جده مندوزا. ولعل ما من الضروري ذكره هو أن هوزيه فضل الخروج عن سلطة

[1]- عمرو عبد العلي علام: الأنا والآخر(الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ص14.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص349.

[3]- المصدر نفسه: ص279.

الكويت الخانقة التي ظلت تحاصره، بعد أن أدرك أن الدون يبقى دونا مهما إمتد به الزمن(فالآخرون هو الجحيم) كما يرى سارتر الذي يمزق كيانه، فالمجتمع ذو بنية متحجرة لا تحتمل التمدد لاستيعاء عرقيات خارج نطاقها، فما اتفق على أنه منبوذ سيبقى كذلك وسيرث عنه أبنائه تلك الصفة. وخروجه عن نطاق هذا الآخر جاء بطريقة عنيفة«أن يزأر القط الصغير، بصوت لا يتناسب وشكله، أشد وقعا من زئير الأسد»[1]فإن الإذلال الذي تعرض له مرارا، وكرم أهله في الإساءة له وقنص مكامن الضعف فيه، جعل مستوى الأدرينالين يرتفع حتى يبلغ الذروة، فحقق فرضية(اضرب أو اهرب) وحدد استجابته بالضرب، ليس الضرب المادي إنما اللفظي، حيث أنه وبالفعل تحررت عقدة لسانه، ليظهر جانبا عدائيا ظل خاملا حتى ذاك الحين«تسلط البعض لا يمكن حدوثه إلا عن طريق جبن الآخرين»[2]وقد ضاق ذرعا من تمثيل دور الجبان.

ولعل إضافة إلى ذلك، خروج الشباب الكويتي في رحلات خارج البلاد مدفوعين برغبة في الانعتاق من قيود المجتمع–ولو لفترة وجيزة–، الذي راح يبني أسوار عالية تكبل حركة أفراده في فضاءات ضيقة جدا، ما يجعله يلجأ إلى البحث عن متنفس بعيدا عن الرقابة، ولعل المغالات في البحث عن الحرية أدى بهم لهدم حواجز الأعراف الدينية والأخلاقية، وهو ما يمكن إيعازه إلى التربية الضاغطة المستبدة خلال نشأتهم الأولى

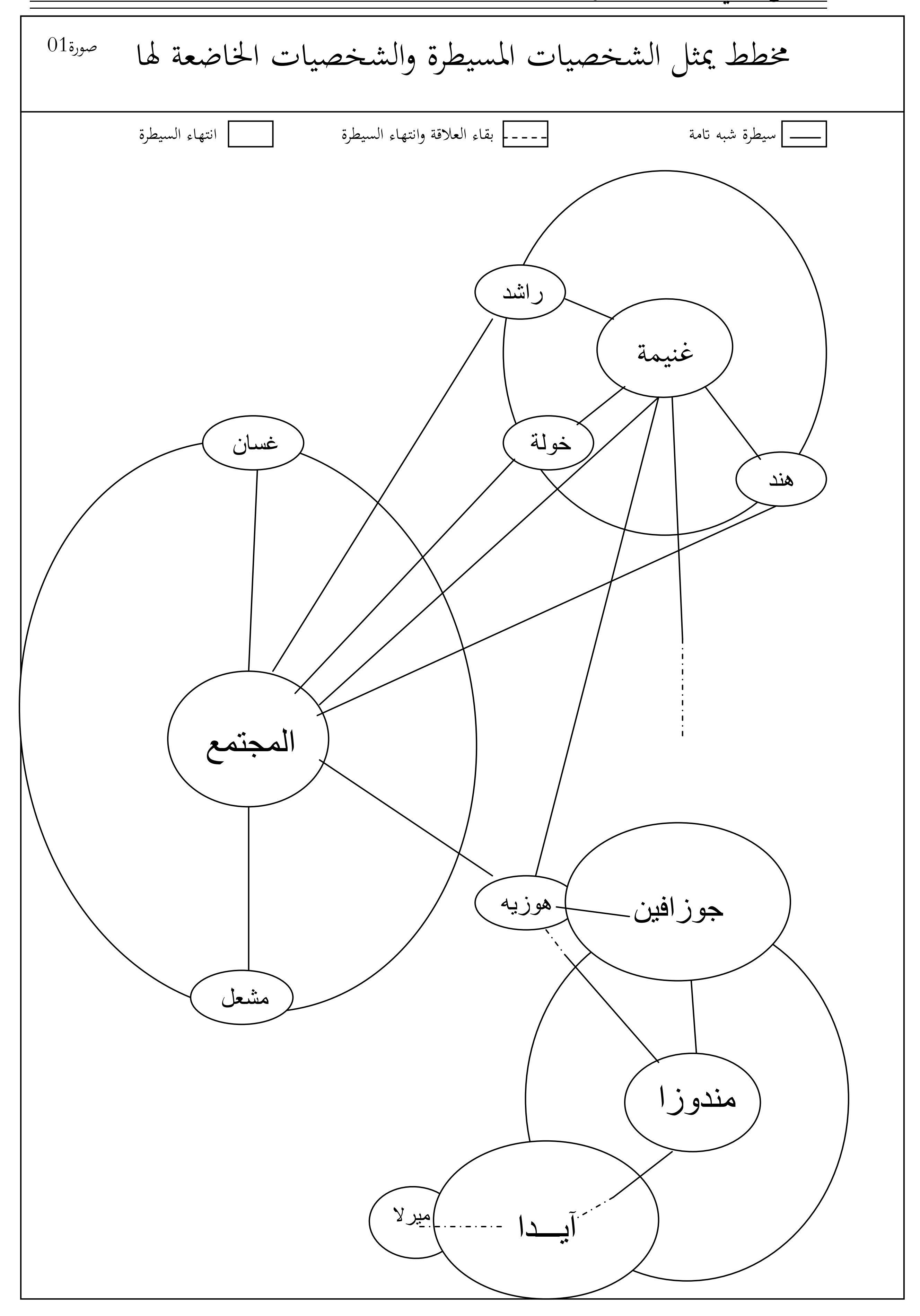
«لم أكن الوحيد في الفلبين الذي ولد من أب كويتي، فأبناء الفلبينيات من آباء كويتيين خليجيين وعرب وغيرهم كثر، أولئك الذين[...]عبثت أمهاتهم مع سياح جاؤوا من بلدانكم بحثا عن اللذة»[3]

وكما مر الذكر فإن تلك القوة الضاغطة القامعة جعلت كل من يدور في فلكها يعاني نوعا محددا من الاغتراب والتشظي.

[1]- المصدر السابق: ص370.

[2]- المصدر نفسه: ص183.

[3]- المصدر نفسه، ص18.


مخطط يمثل الشخصيات المسيطرة والشخصيات الخاضعة لها
صورة01
سيطرة شبه تامة
بقاء العلاقة وانتهاء السيطرة
انتهاء السيطرة
راشد
غنيمة
خولة
هند
غسان
المجتمع
مشعل
هوزيه
جوزافين
مندوزا
آيــدا
ميرلا

ثانيا: الصراع النفسي للشخصية الرئيسية

الفرد خلال مسيرة حياته الطويلة كثيرا ما يتعرض وبشكل جبري ومتكرر إلى العديد من المآسي التي تكدر صفو حياته، والتي تنعكس بشكل مباشر على التركيبة الجوانية، محدثة خللا داخليا قد يستمر معه حتى النهاية معطلا مساراته، وتجعله يتعرض لضغوط تشله في كل مرة عن المضي قدما فتتولد حالة من اللاتوازن الانفعالي، مخلفة أخاديد عميقة غائرة في عمق الذات، فيسيطر عليه القلق والتردد وعدم الثبات.

لقد سعت الأنا لتحقيق ذاتها حتى في ظل الرفض«انصرفت عن فكرة السفر[...]ليقيني بأنني إن فعلت، قبل أن تنبت لي جذور في بلاد أبي، سوف لن أعود أبدا»[1]لكن ذلك لم يتسنى لها«ضاقت الكويت فجأة[...]أصبحت بحجم علبة ثقاب، لم أكن أحد أعوادها»[2]حتى أنه فقد إنسانيته هناك لينازعه شعور بالتشيؤ. لكنه في نفس الوقت لم يحرك ساكنا من أجل مد جذوره بل اكتفى بالانتظار ومراقبة تغيرات المحيط التي يحملها القدر في استسلام تام«كل شيء يحدث بسبب ولسبب يعجبني إيمان أمي»[3]فهي قاعدة جاهزة تبناها ليترك للقدر مهمة رسم حياته والتخطيط لمستقبله، لعدم قدرته على إدارة حياته بنفسه.

قامت أمه بفعل التحريك عن طريق تحقيق الدافع في ذات الشخصية، ضف إلى ذلك الحاجة التي أطاحت به من الجانب المادي، فهو لم يكن راض تماما عما هو فيه«كانت الأبواب في بلاد أمي قد بدأت توصد في وجهي»[4]. وبفضل كل هذا تتشكل صورة خيالية عن أرض الحلم التي ما فتئ يمنى بها

> **«يلجأ الفرد إلى تكوين صورة خيالية عن تحقيق الذات متخذا من الذات المثالية مركزا لها وتعد هذه بطبيعة الحال بمثابة حالة مرضية يتمسك الفرد بمثل أعلى يصعب تحقيقه مثل[...]عدم قدرة الفرد على تقرير أموره بنفسه»[5]**

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص312.

[2]- المصدر نفسه: ص383.

[3]- المصدر نفسه: ص215.

[4]- المصدر نفسه: ص149.

[5]- أديب الخالدي: المصدر في الصحة النفسية، الدار العربية، ليبيا، ط2، 2002، ص76.

لكنه بعد أن ارتسمت الصورة الحقيقية في ذهنه، بفضل خبرته الفعلية الشخصية، بعد حلوله في أرض الكويت، راح يقارن بين مواضعات الأنا المثالية وما خبره من تجارب في مسقط رأسه فأحدث التناقض بين لصورتين صراعا داخليا نفسيا و«الصراع النفسي هو تعرض الفرد لقوى متساوية تدفعه باتجاهات متعددة مما تجعله عاجزا على اختيار اتجاها معين»[1].

أما موضوع الصراع فهو تناظر الذات وموضوعاتها في رحلة بحثها عن«أرض تؤويني بين بلاد أبي وبلاد أمي»[2] لتتشظى عبر عدة مسارات خلال مراحل حياتها:

1. صراع جذب-$\emptyset$(الموضوعات)/إقدام-إحجام(الذات): لقد عاش في الفلبين مرحلة طفولته ومراهقته، لذلك تبرعم في ذاته حب قوي، فالفلبين بهذا المنطق تجذبه ولم يكن يحمل أي فكرة عن الكويت؛ بحكم أنها كانت له حتى فترة متأخرة عبارة عن حلم، أو حكاية خيالية ممتعة تتكلف أمه عناء سردها، لذلك كان منجذبا نحو الفلبين التي ألفها نافرا من الكويت«كنت أبكي إذا ما جاء ذكر الكويت التي لا أعرف عنها شيئا»[3].
2. صراع جذب مزدوج/إقدام مزدوج: حيث تجذبه الفلبين بحكم المنشأ، وتجذبه الكويت الحلم كما كانت ترسمه أمه فينجذب نحوها معا.
3. صراع إعراض-جذب/إحجام-إقدام: تجذبه الكويت أرض الحلم التي ظل يتلهف للحلول بها ونيل حقوقه، في حين تعرض الفلبين عنه بسبب الفاقة، والجهود المضنية التي كان يبذلها لأجل كسب قوت يومه، فينفر عاطفيا من الفلبين منتظرا الفرصة التي تقذف به إلى أرض الحلم«كنت أتخيلني مثل آليس، أتبع وعود أمي بدلا من الأرنب، لأسقط في حفرة تفضي إلى الكويت»[4].
4. صراع إعراض مزدوج/إحجام-إقدام: وفي هذه الأثناء كان قد استقر بالفعل في أرض أبيه إلا أن الصورة التي رسمتها التجربة كانت مخالفة تماما لما أوهمته أمه ، ضف إلى ذلك ما قاساه من إعراض أهله عنه، وما تجرعه من مآسي بسببهم، لكنه هاهنا لازال لا يرغب في العودة إلى الفلبين، فهو رغم كل شيء يرغب في مد جذوره في أرض أبيه وترفضه كلا

[1]- المرجع السابق: ص124.

[2]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص224.

[3]- المصدر نفسه: ص71.

[4]- المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

الأرضان«انصرفت عن فكرة السفر[...]ليقيني بأنني إن فعلت، قبل أن تنبت لي جذور في بلاد أبي، سوف لن أعود أبدا»[1].

5. صراع جذب-إعراض/إقدام مزدوج: بعد ذلك ضاقت نفسه من الصد، فتحققت في داخله رغبة في العودة إلى الفلبين بعد أن خابت آماله في الكويت وتحطم الحلم، لكن السلطة الأبوية ظلت تعاند بشدة لكبح لجام رغبته، فراحت تعاند من جديد لإبقائه هناك«كانت فكرة السفر إلى الفلبين[...]بدأت تتقافز داخل رأسي. رفضت أمي الفكرة رغم إشتياقها لي»[2]فتحقق في داخله الرغبة البقاء وكبت للرغبة الأولى«انصرفت عن فكرة السفر»[3]فيتحقق أقدام مزدوج؛ رغبته في العودة إلى الفلبين، ورغبته الأخرى في مد جذوره في الهنا.

6. صراع إعراض مزدوج/إحجام مزدوج: في هذا المستوى دخلت الذات في حالة عزلة وجودية محاولة بذلك إيجاد تعريف للذات برسم خطة واضحة للمسار الذي لابد من أن تسلكه فيما بعد، بدل من التخبط اللامعياري الذي ظلت تعيشه في استسلام«العزلة زاوية صغيرة يقف فيها المرء أمام عقله[...]لم أنو استخدامه قط، فأنا لا أثق فيه»[4].

7. صراع جذب-إعراض/إقدام مزدوج: تحققت أخيرا استجابته للرفض والإعراض، وما عاد الأنا الأعلى قادرا على ألجام رغبته في العودة، أو ربما اقتنع أن الكويت ليست محلا لغرس الطموحات، أو صدرا رحيما يمكن أن يستقبل المنبوذين فقط لأن دمها يجري في عروقه فتلفظه ليعود إلى الفلبين جارا أذيال الخيبة«الكويت..كلما أحكمت يدي على طرف ثوبها فلتت من يدي..أناديها..تدير لي ظهرها..أركض إلى الفلبين شاكيا»[5]لكنه في نفس الوقت لم يتخلى عن انتمائه لأرض الكويت لتبقى حاضرة في داخله، تبرح كينونته المهجنة رغم قناعته بكونها جنة محرمة.

انطلقت الذات في تحديد ذاتها من الأنا وصولا إلى محيطها، ثم من الآخر والعودة إلى الأنا من جديد، فالانطلاق من الأنا للآخر بحثا عن نصف هويته المفقود، ومنه إلى الأنا محاولة لإثبات

---

[1]- المصدر السابق: ص312.

[2]- المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[3]- المصدر نفسه: الصفحة نفسها.

[4]- المصدر نفسه: ص302.

[5]- المصدر نفسه: ص304.

نفسه، وبذلك استطاع الركون إلى قرارات محددة ورسم طريق واضحة لتسير عليها حياته بعيدا عن الهيكلة الضبابية التي سادت مدركاته بفعل الاضطرابات النفسية والهامشية التي ظل يعانيها يفعلها الانتماء المزدوج ورفض الآخر له، فرسى لحل الصراع بتحقيقه الانسجام النفسي بعد أن فشل في إيجاد وفاق اجتماعي.

الصراع الإثني: إن رفض أهله الكويتيين له، الرفض الذي استنكره، وذلك بسبب انتسابه إلى والدته الفلبينية، وما ورثه عنها من ملامح، ولعل هذا الاستنكار للرفض يصاحبه استنكار للذات فهو يرفض وضعه، يرفض نسبه(الوضيع كما يقولون) ويكره ملامحه التي ما تفتأ تعلن عن نفسها فالذات رغم كونها ترفض التمييز العنصري الذي تتعرض له، والعصبية التي يدين بها قومه، إلا أنه في نفس الوقت يمارس نفس التوجه، وهو ما دفعه لحالات من جلد الذات في كثير من الأحيان ولعله في اختياره لابنة خالته التي لا تشبه ملامحها الفلبينيات نوع من الاستنكار للجنس الفلبيني الدون، ثم إن السرد لم يعلن عن انجذاب الشخصية(هوزيه) للفتيات الفلبينيات رغم أنه قضى فترة مراهقته هناك في الفلبين، رغم ذلك تعلن الذات عن انجذابها للكويتيات يقول:«كثير من الفتيات التي أمر بهن، كل يوم، يحركن شيئا في داخلي»[1]وفي ذلك نوع من التمييز العرقي الذي فضحه السرد، وأعرب عن شيء من الاستنكار المضاعف(استنكار للتمييز/استنكار للنسب)ما يؤدي نهاية المطاف لاستنكار للذات.

الصراع الديني: تتلاقى في البطل هوزيه عدة ديانات، ميراثه عن أبويه للديانتين المسيحية عن أمه والإسلامية عن أبيه، وما ثقفه عن الديانة البوذية صديقه وزميله في السكن"تشان" ذلك ما أحدث نزاع بين الأيديولوجيات الدينية داخله، رغم القصور الذي لامسه إما في الدين ذاته، أو في معتنقي ذلك الدين، ما جعله يدخل في حيرة من أمره، فأي ديانة جديرة بأن يذعن لها ولائه التام.

[1]- سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص328-329.


خاتمة

وقبل طي آخر صفحات البحث كان لزاما عرض مجمل النتائج التي انتهى عند بابها البحث، والتي يمكن حصرها فيما يأتي:

- إن حلول جماعات أجنبية كوفود عاملة في أراض ما، يؤثر سلبا على الهوية سواء بالنسبة للوافد أو المقيم، ولعل الاحتكاك المباشر يسبب خلخلة المعايير والقيم المشكلة للهوية العامة، إذا كانت الجماعات المضيفة متعصبة لعرقياتها ذلك يؤثر في العلاقات المتبادلة القائمة على النفعية، والتي تتسم بالجمود والتطرف.
- عندما تتعدد هوية الفرد يتولد في داخله صراع داخلي مفهومه الولاء وقلق التموقع فالشخص رغم استعابه لانتماءاته المتعددة غير أنه وبمجرد تصادم انتمائين، قد يسبب له صدمات حادة، وتمزقات نفسية بالغة الخطورة، فهو إذ ذاك يكون في موقف يجبره على خيانة أحد الانتمائين، لكن إن كان انتمائه في حد ذاته يرفضه فهذا أمر آخر، إذ إن عدم استوعاب هوية معينة لأفرادها، قد تجعلهم إما منعزلين أو خاضعين أو إما فاعلين سلّب في المجتمع.
- عندما تخفت الهوية سواء بسبب السطوة الاجتماعية والقهر أو حتى التهميش السياسي لبعض فئات المجتمع، ينعزل الفرد وتقل فاعليته فيه فينسحب نحو الداخل أو ينفصل عن التركيبة الاجتماعية فيتولد لديه شعورا بالاغتراب، ذلك أنه يعدم الشعور بطعم الحياة المبني على العطاء المتبادل والامتنان، وإذا كان كل ما يبذله لا يقابل في النهاية إلا بالجحود، سيجعله لا يشارك في الحياة الاجتماعية ولا في بناء الدولة بقدر ما يشارك في هدمها إن تسنت له الفرصة نكالا، ولكنه سيتحتم عليه العطاء فقط بقدر ما يأخذ، وبقدر ما يحقق له الاستمرار.
- إن المسح التام للهوية أو طمسها، هو أحد درجات الأزمة وأكثرها حدة، والتي قد تؤدي بالفرد نحو التأثير السلبي كالتطرف أو العنف ضد الذات والآخر.
- هوية الذات حتى تدرك إدراكا عميقا تتطلب وجود الآخر، فهوية الفرد لا يمكن أن تدرك إلا بوجود مختلف عنها، تكون على اتصال به تتحاور معه وقد تتصارع وإياه حتى، ذلك

سيضمن للذات صعود دائم نحو القمة للوصول إلى درجة مرغوبة من السواء قادرة على استيعاء الحياة بتناقضاتها، فالفرد الذي يعيش في برج عاجي بعيدا عن الاحتكاك بالآخر، لا يمكن أن يدرك ذاته وقدراته بالمرة، فإذا قيل أن الحياة أخذ وعطاء تحكمها علاقات نفعية، فهذا يعني أنها تتطلب الاحتكاك بالآخر، والمشاركة في المواقف الواقعية، بعيدا عن ذلك ستتكون ذوات ببناء هش، مستعدة للانهيار عند أخف الأزمات، وما دامت لا تتكيف مع الأقل حدة فما بالك بالصدمات ذات الوزن الثقيل على النفس.

- تخضع الهوية الفردية أثناء تشكلها للمؤثرات الخارجية بدءا بالأسرة التي تمثل العتبة التي يكتسب فيها الفرد أيديولوجياته وأفكاره ومدركاته الأولى، وعلى أساس ما يدخره خلال هذه المرحلة، يتمكن فيما بعد من مواجهة العالم الأكبر، بدءا بالمدرسة وهي مرحلة مهمة أهملها السرد، وصولا للتركيبة الاجتماعية الأكثر تعقيدا. وكل هذه المراحل تسهم في بناء أو خلخلة للهوية أو تعديلها، سواء نحو القيم الموجبة أو السالبة منها.
- لعل الاغتراب هو مرض العصر، فالواقع الذي يعمد إلى التسارع، يجعل الفرد ذاهلا كونه لا يستطيع مجاراته، فالتغيير المستمر الذي ما يلبث يقلب الواقع، تجعل الفرد الذي وفي المقابل ما يلبث أن يعتاد قيمة معينة حتى ينقلب عنها وجه العالم إلى أخرى، ولعل هذا من أهم الأزمات التي يمر بها الواقع اليوم في ظل مجتمع يتعولم.
- يتخذ الاغتراب أشكال عدة، كلا حسب استعداده لاستوعاب عالمه، وحسب قدراته للتفاعل مع أزماته، وحسب طبيعة الأزمة التي يمر بها هو ذاته، كل هذا يحدد طبيعة الاغتراب الذي يعانيه الفرد في حدته.
- إن ما يفعل الواقع ويمنحه حقيقته هي العلاقات الرابطة بين أفراده، ولعل هذه العلاقات كثيرا ما يتخللها أعطاب كثيرة تؤدي كنتيجة حتمية لجملة من الصراعات، تدفع الفرد حين تصادم رغباته والقوانين التي تضبط وجوده إلى احتدام الاضطرابات الداخلية.

- لعل من القوانين التي تفرضها الحياة وجود قائد للمجموعة سواء تعلق الأمر بمجموعة العمل أو الأسرة ..والذي يفرض سطوته عليهم، ويتدخل في كثير من شؤون حياتهم، ما تخوله لنيل سلطة المركز، الذي يستقطب مداره أفراد المجموعة الخاضعة.
- تنتهي الرواية إلى مجال غير محسوم وهو نتيجة منطقية فالواقع الفعلي لم يحسم ولم ينصف هذه الاقليات ولم يسع حتى لتضميد جراحاتها.
- رؤية سعود السنعوسي للأزمة مستوحات من الواقع الفعلي المعاش، والذي رصده بعين ثاقبة، وبحس فنان مرهف، فنقله مركزا على المعانات التي يمر بها الفرد حين لا ينصفه المجتمع، كاشفا الغطاء عن فضاءات مجهولة، ونقلها بطريقة أكثر شفافية من أن يدركها الشخص نفسه.
- لعل ما عكسته الرواية يبدو غير مبرزخ عن الواقع بل جزء منه، ذا بعد حقيقي بشكل ما وذلك ليس صعبا على كاتب كسعود خاض منذ بداية مشواره في المنحى النفسي ونجح في ذلك، إذ تعد روايته الأولى المعنونة ب"سجين المريا" رواية نفسية من العيار الثقيل، تحمل من الحذق الفني والرؤيا الواقعية الشيء الكثير.

ملاحق

شرح الكلمات الغامضة:

الكلمة	رقم الصفحة	معنـــــــــــــــــــــــــــــــــــاها
الإثنية	16	في الفرنسية ethno تعني عرقي، فهي كلمة فرونكفونية مصاف لها تاء التأنيث وياء النسبة.
الغيشا	17	هن مجموعة من الفتيات من الطبقة البروليتاريproletarius (الطبقة الكادحة) تم استغلال حاجتهن واسترقاقهن، كثيرا ما يكن ملكا لأحد التجار أو الأثرياء، يقمن بخدمة زبائنهن من رجال القصر والطبقات الراقية عادة، يملكن مهارات عدة ويستعملن مساحيق فاقعة بشكل كثيف، في كوريا يطلق عليهن لقب"كي-سينغ".
الزواج المختلط	24	تختلف فيه جنسية الزوجان، فكلا منهما ينتمي قانونيا إلى جغرافيا مختلفة عن الآخر
استاتيكي	40	Static تعني الجمود، فالذهنية الكويتية رغم انفتاحها على التعدد رجعية التفكير غير مستوعبة لتعدديتها إذ ظل تفكيرها جامدا.
كزموبوليتاني	40	Cosmopolitan العالمية، أي أنه مجتمع متنوع منفتح على تنوعه.
مشيج	40	المادة المشيجة الناتجة عن تركيبتين مختلفتين، فهوزيه يعتبر من طبقة المولدين.
بطريركي	41	Patriarchal السلطة الأبوية.
حرملك	43	مشتقة من كلمة حريم؛ بيت النساء.
طاروف	53	تشير المدونة إلى أن الطاروف يعني شبكة الصيد.
توتاليتارية	60	Totalitarian مصطلح سياسي يعبر عن نوع من الحكم ذو طبيعة استبدادية كما يسيطر على حرية الرأي والتعبير[1].
شيزوفرينيا	63	Schizophrenia انفصام الشخصية.
الجندرية	63	كل عنف ضد المرأة مهما اختلف شكله يسمى عنفا جندريا.
نوستاليجيا	70	Nostalgia الحنين إلى الماضي.

[1]- مساهل فاطمة: «الشمولية وتدميرها لبنى المجتمع»، المجلة الأكاديمية للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف العدد14، جوان2015، ص3.

سعود السنعوسي:



سعود السنعوسي الصورة02

سعود السنعوسي من«مواليد 1981 كاتب وروائي كويتي عضو رابطة الأدباء في الكويت وجمعية الصحفيين الكويتيين. فاز عام 2013 بالجائزة العالمية للرواية العربية في دورتها السادسة عن روايته ساق البامبو التي حصدت جائزة الدولة التشجيعية في دولة الكويت عام 2012»[1].

«السنعوسي أصغر الفائزين سنا في تاريخ الجائزة إذ لا يتجاوز عمره 31 عاما كما أنه أول كويتي يحصل على هذه الجائزة[...]أختيرت ساق البامبو من بين 133 رواية تقدمت للتنافس على الجائزة من كل أنحاء العالم العربي[...]صدرت "سجين المرايا" عام 2010، وهو عضو رابطة الأدباء في الكويت. وعضو جمعية الصحافيين الكويتية. وحائز على جائزة الروائية ليلى العثمان لإبداع الشباب في القصة والرواية في دورتها الرابعة، وذلك عن رواية"سجين المرايا".

فاز بالمركز الأول في مسابقة "قصص على الهواء" التي تنظمها مجلة "العربي" بالتعاون مع إذاعة "بي بي سي" العربية، عن قصة"البونساي والرجل العجوز" في يوليو2011.»[2].

ألف ثلاثة أعمال روائية: سجين المرايا 2011، ساق البامبو 2012، فئران أمي حصة2015. ترجمت رواية ساق البامبو للعديد من اللغات، ومبرمجة لأن يتم تمثيلها في مسلسل درامي كويتي رمضان 2016، من بطولة سعاد عبد الله، إخراج مُحَمَّد القفاص، وانتاج شركة"الصباح بيكتشرز"[3].

---

[1]– ويكيبيديا الموسوعة الحرة: سعود السنعوسي، 25مارس2016الساعة01:35، في https://ar.wikipedia.org/wiki/سعود_السنعوسي، بتاريخ 11-05-2016 الساعة15:47.

[2]– صحيفة الراي، يومية كويتية، العددAO-12352، الجمعة 26 أبريل 2013، ص13.

[3]– مشاهيري: سعاد عبد الله في مسلسل "ساق البامبو" خلال رمضان 2016، 13نوفمبر2015الساعة08:45، في www.mashaheeri.com/article/سعاد-عبدالله-في-مسلسل-ساق-البامبو-خلال-رمضان-2016_a31009/1، بتاريخ 11-05-2016 الساعة15:47.



سعود السنعوسي في حفل توقيع ساق البامبو بمكتبة نابلس بفلسطين الصورة03

ملخص الرواية:

تتحدث الرواية عن حياة بطلها هوزيه، الذي ولد لأب كويتي وأم فلبينية، وبسبب نسبه لأمه تم رفضه من طرف عائلته لأبيه، فأرسل وأمه إلى الفلبين بعد أن فسخ زواجه بها، الذي بني منذ البداية على العرف. تربى هوزيه في منزل جده مندوزا الذي عانى بدوره من مجهولية نسبه، ومما لاقاه في حرب الفيتنام، فعانى البطل من استغلال جده الذي جعله يقوم بأعمال شاقة وهو في سن صغيرة، تركته أمه بعد زواجها في رعاية خالته المدمنة آيدا.

ترك منزل جده وانقطع عن الدراسة ليزاول أعمال عدة من تجارة وتدليك، ثم ينتقل بعد ذلك للخدمة في أحد الفنادق في بوركاي كسائق لزورق، ما مكنه من التعرف على قوم أبيه؛ حيث إلتقى بجماعة أطلق عليهم "مجانين بوركاي".

أعلن فيما بعد وفاة جده ثم أبيه، ليعود إثر هذه الحادثة الأخيرة بمساعدة صديق والده"غسان" إلى الكويت، لكنه لم يلق الاستقبال الذي يليق بابن فارقوه منذ أمد بعيد؛ حيث تمت معاملته بطريقة فظة، إذ تلقى على أيديهم أصناف الذل والمعاناة والنبذ والتهميش.

ظل يعاند عله يحظى في النهاية ببعض الاعتراف، ولكن وعلى العكس من ذلك راحت الأمور تزداد سوء يوما بعد يوم، ليقرر في النهاية الخروج عن العائلة والعيش كأي فلبيني مغترب.

تتسارع الأحداث ويلتقي بأصدقائه "جماعة المجانين" إذ توطدت علاقته بهم لدرجة أنه أسر لهم كونه ابن أحد العائلات الثرية التي لها مكانتها في المجتمع، وكان هذا الإعلان مصدرا لتضخيم عنائه، إذ تمت إذاعة الخبر من طرف أحد أفراد المجموعة، ما تسبب في خسارة عمته الانتخابات وثارت ثائرة أسرته؛ فحرموه من المنحة التي كانت قد خصصت له من طرفهم، ما صعب عليه سبل العيش، ليعود من جديد إلى أرض الجد مندوزا حيث باشر بإنهاء سيرة حياته التي بدأها في الكويت، ثم تم له زواجه من إبنة خالته "ميرلا" ذات السحنة الأوروبية، التي ورثتها عن أبيها الإسباني المجهول، وينجب منها ابنه الأول "راشد".

المادة 5

استثناء من أحكام المادة السابقة،يجوز منح الجنسية الكويتية بمرسوم-بناء على عرض وزير الداخلية- لمن يأتي:

أولا - من أدى للبلاد خدمات جليلة.

ثانيا- المولود من أم كويتية، المحافظ على الإقامة فيها حتى بلوغه سن الرشد إذا كان أبوه الأجنبي أسيرا أو طلق أمه طلاقا بائنا أو توفى عنها.

ويجوز بقرار من وزير الداخلية معاملة القصر ممن تتوافر فيهم هذه الشروط معاملة الكويتيين لحين بلوغهم سن الرشد.

ثالثا- من أقام في الكويت عام **1965** وما قبله وحافظ على الإقامة فيها حتى صدور المرسوم بمنحه الجنسية.

وتعتبر إقامة الأصول مكملة لإقامة الفروع في حكم البند ثالثا من هذه المادة بشرط أن يكون الفرع مولودا في الكويت ومقيما بها، على أن يصدر قانون بتحديد العدد الذي يجوز منحه الجنسية كل سنة بالتطبيق لأحكام هذا البند.

قانون الجنسية الكويتي(1959/15) المادة05 صورة04

المادة 3

يكتسب الجنسية الكويتية كل من ولد في الكويت لأبوين مجهولين , ويعتبر اللقيط مولودا فيها ما لم يثبت العكس.

ويجوز بمرسوم بناء على عرض وزير الداخلية منح الجنسية الكويتية لمن ولد في الكويت أو في الخارج من أم كويتية وكان مجهول الأب أو لم تثبت نسبته إلى أبيه قانونا, ويجوز بقرار من وزير الداخلية معاملة القصر في هذه الحالة معاملة الكويتيين لحين بلوغهم سن الرشد.

قانون الجنسية الكويتي(1959/15) المادة03 صورة05



الغيشا اليابانيات صورة06



سعود السنعوسي

سجين المرايا



رواية

غلاف رواية سجين المرايا الصادرة عن دار العربية للعلوم بتاريخ 2011 في طبعتها الأولى صورة07



غلاف رواية ساق البامبو الصادرة في طبعتها الأولى عن دار العربية للعلوم بتاريخ 2012 صورة08



غلاف رواية فئران أمي حصة الصادرة في طبعتها الأولى عن دار العربية للعلوم بتاريخ 2015 صورة09



بوستر مسلسل ساق البامبو صورة10

لائحة المصادر

والمراجع

i. المصادر:

1) باللغة العربية

س.

سعود السنعوسي، ساق البامبو، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2012.

1. المترجمة:

أ.

أمين معلوف، الهويات القاتلة(قراءات في الانتماء و العولمة)، تر:نبيل محسن، دار ورد دمشق ط1، 1999.

ii. المراجع

باللغة العربية:

أ.

1. إبراهيم عبد الله، السرد الاعتراف و الهوية، المؤسسة العربية، بيروت،ط1، 2011.
2. أحمد مُحَمَّد وهبان، الهوية العربية في ظل العولمة(إطلالة على حال الهوية في مصر والعالم العربي) الجمعية السعودية للعلوم السياسية، جامعة الملك سعود، السعودية، د.ط، د.ت.
3. الأخضر بن السايح، سرد المرأة وفعل الكتابة(دراسة نقدية في السرد وآليات البناء) دار التنوير، د.ط، 2012.
4. أديب الخالدي، المرجع في الصحة النفسية، الدار العربية، ليبيا، ط2، 2002.

ب.

5. بدر مُحَمَّد الأنصاري، التفائل والتشاؤم(المفهوم والقياس والمتعلقات)، مطبوعات جامعة الكويت، د.ط، 1998.

ج.

6. جابر عبد الحميد جابر، نظريات الشخصية(البناء.الديناميات.النمو.طرق البحث. التقويم) دار النهضة العربية، القاهرة، د.ط، 1990.

ح.

7. حمدان مجزع الشمري ووصايف مهدي الشمري، البدون في الكويت قضية لم تحسم بعد إدارة مجلس الدراسات والبحوث (مجلس الأمة الكويتي)، 2014.

8. حمد عبد المحسن الحمد، الكويت والزلفي(هجرات وعلاقات وأسر)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010.

س.

9. سيدي محمَّد ولد يب، الدولة وإشكالية المواطنة(قراءة في مفهوم المواطنة العربية)، دار الكنوز المعرفية، عمان، ط1، 2011.

ع.

10. عطية محمَّد عبد الرؤوف، التعليم وأزمة الهوية الثقافية، مؤسسة طيبة، القاهرة، ط1 2009.

11. عفيف البوني، "في الهوية القومية العربية"، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2013.

12. عمرو عبد العلي علام، الأنا والآخر(الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، دار العلوم، القاهرة، ط1، 2005.

ف.

13. فاتح عبد الجبار، "معنى العولمة"، العولمة والهوية الثقافية، سلسلة أبحاث المؤتمر7 المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت.

م.

14. ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر(نماذج روائية عربية)،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، دط، مارس2013.

15. محمَّد السيد عبد الرحمن، نظريات الشخصية، دار قبى، القاهرة، دط، 1998.

16. محمَّد خليفة عبد اللطيف، دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب، القاهرة دط 2003.

17. منظمة العفو الدولية، كويتيون بدون، د.ط، سبتمبر 2013.

ن.

18. نجلاء عبدالحميد راتب، الانتماء الاجتماعي للشباب المصري دراسة سوسيولوجية في حقبة الانفتاح، مركز المحروسة، القاهرة، ط1، 1999.

هـ.

19. هاني عرموش، المخدرات إمبراطورية الشيطان(التعريف-الإدمان-العلاج)، دار النفائس بيروت، ط1، 1993.

2) **المترجمة:**

أ.

1. أنطونيو غوتيريس، الحد من وخفض حالات انعدام الجنسية (اتفاقية عام 1961بشأن خفض حالات انعدام الجنسية)، المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئيين سويسرا، 2010.

ص.

2. صامويل ب.هنتنجتون، من نحن(المناظرة الكبرى حول أمريكا)، تر:أحمد مختار الجمال المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009.

ك.

3. كلود دوبار، أزمة الهويات(تفسير تحول)، تر: رندة بعث، المكتبة المركزية، لبنان، ط1 2008.

م.

4. مايكل راتر، الحرمان من الأم(إعادة تقييم)، تر:ممدوحة مُحمَّد سلامة، مكتبة أنجلو القاهرة ط2، 1981.

iii. **المعـــــاجم:**

أ.

1. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الإجتماعية(إنجليزي-فرنسي-عربي) مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1982.

ج.

2. جمال الدين أبو الفضل مُحمَّد ابن مكرم(ابن منظور)، لسان العرب، مج4، دار المعارف القاهرة، دط، دت.

iv. الدوريات والمجــلات:

أ.

1. أمل المعطي، «ظاهرة العاملات الأجنبيات في الأسر السورية(دراسة ميدانية في مدينة دمشق)»، مجلة دمشق، المجلد28، العدد2، دمشق، 2012، ص325.

ح.

2. حامد صدقي وعبد الله حسيني، «مشكلة الاغتراب الاجتماعي في المكان الضد قراءة في رواية الحي اللاتيني»، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد4، شتاء2011.
3. حماد أبو شاويش وإبراهيم عواد، «الاغتراب في رواية البحث عن وليد مسعود لجبرا ابراهيم جبرا»، سلسلة الدراسات الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد14، عدد2 يونييه2006.

ع.

4. عبيد صبحي وتومي الخنساء، «سوء معاملة الأطفال في المجتمع(بين الأسباب والآثار)»، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الوادي، العدد2، نوفمبر2013.
5. عطية أحمد، «ما وراء العمالة: المقيمون الأجانب في دول الخليج»، العمالة المهاجرة في منطقة الخليج(تقرير موجز رقم2)، مركز الدراسات الدولية والإقليمية، كلية الشؤون الدولية، جامعة جورجتاون، قطر، د.ط، 2011.

م.

6. محمد سعدي، «الهوية..من الوحدة إلى التعدد»، مجلة آفاق المستقبل، العدد7 أكتوبر2010.
7. مساهل فاطمة: «الشمولية وتدميرها لبنى المجتمع»، الأكاديمية للدراسات الإنسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، العدد14، جوان 2015.

هـ.

8. هنية مشقوق، «تجليات الحس الاغترابي في رواية بحر الصمت لياسمينة صالح»، مجلة المخبر(أبحاث في اللغة والأدب الجزائري)، جامعة بسكرة، العدد10، 2014.

v. الصحف:

ر.

صحيفة الراي، يومية كويتية، العددAO-12352، الجمعة 26 أبريل 2013.

vi. المواقع الإلكترونية:

1. ويكيبيديا الموسوعة الحرة: سعود السنعوسي، 25مارس2016الساعة01:35، في https://ar.wikipedia.org/wiki/سعود_السنعوسي.
2. مشاهيري: سعاد عبد الله في مسلسل "ساق البامبو" خلال رمضان 2016، 13نوفمبر2015الساعة08:45، في www.mashaheeri.com/article/سعاد-عبدالله-في-مسلسل-ساق-البامبو-خلال-رمضان-2016_1/a31009.

فهارس

